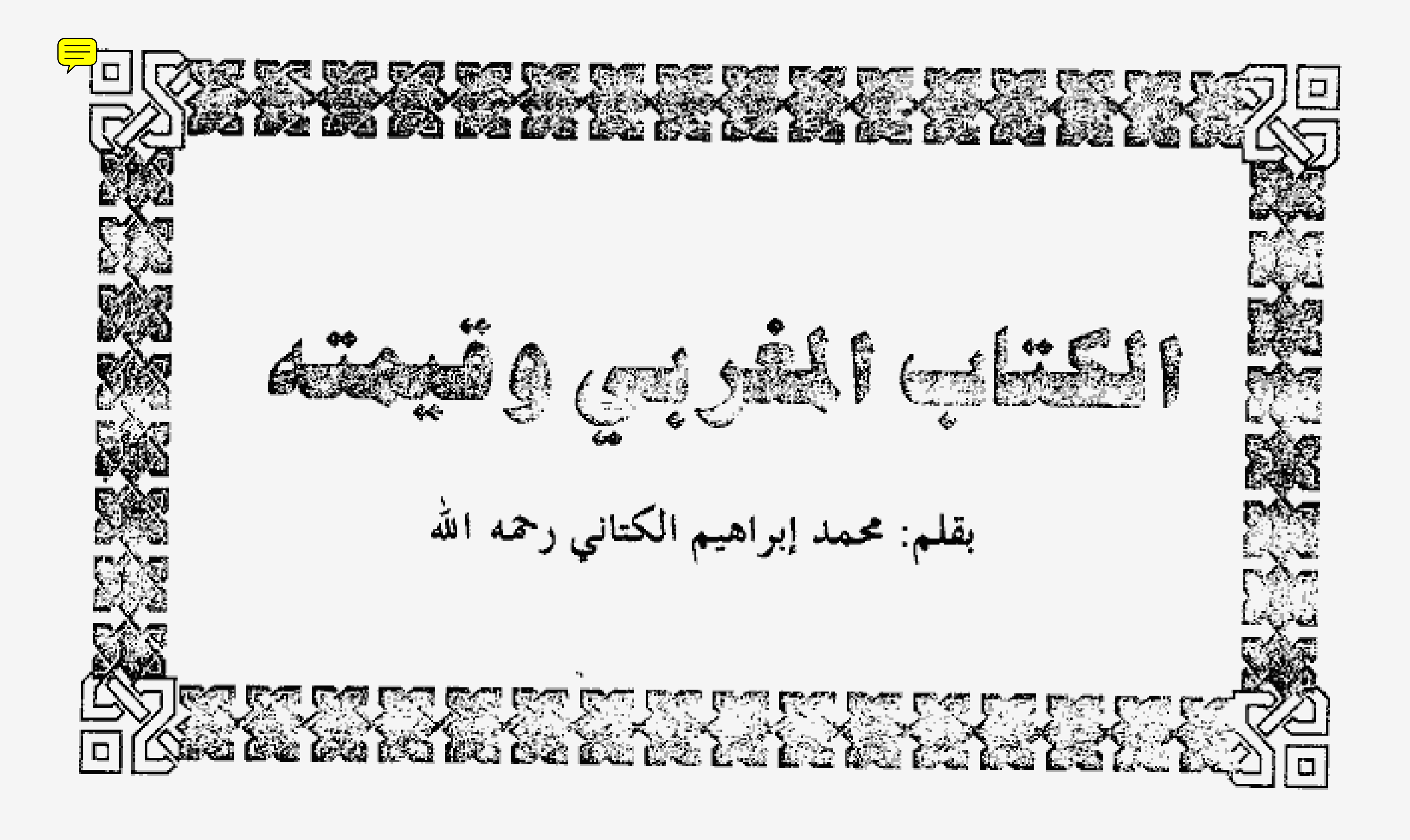


الكتاب المغربي وقيمته

بقلم: محمد إبراهيم الكتاني رحمه الله

المؤلف في سطور

يعد الشيخ محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني شخصية موسوعية والتطرق إلى الحديث عن بعض مظاهر حياته يستدعي التطرق إلى مجالات علمية وتاريخية وجهادية بما تضمه من فروع شتى فهو بحكم زمنه رجل مخضرم، عاش في مدينة فاس قبل الاستعمار وأثناء الاستعمار وبعد الاستعمار، فتشرب جميع التجارب الماضية، وهو من الناحية العلمية إمام من إئمة الفقه والتاريخ، ورزق المشاركة في أغلب العلوم المشهورة وله المرجعية في علوم المخطوطات والنوادر، ومن الناحية الجهادية أحد كبار مجاهدي المغرب الذين أفنوا زهرة شبابهم في حرب الاستعمار الفرنسي الغاشم وسجن وعذب مراراً في سبيل الله وهو من الناحية الدينية غيور شديد الغيرة على دينه، زاهد في الدنيا وملذاتها مكتفٍ بالدعوة والجهاد، والعلم والتعليم حتى أن اجتمعت أسباب الزعامة الدنيا بين يديه آثر الزهد والعلم والتعليم عليها وفارق هذه الحياة وهو لا يملك سوى مؤلفاته وخزانته العلمية.

ولد رحمه الله سنة (١٣٢٥هـ) في مدينة فاس المغربية نشأ وترعرع في أحد أبرز البيوتات الأشراف بالمغرب ووالده أحد العلماء الأعلام وكذا جده (جعفر بن إدريس الكتاني)

وكانت له علاقة وثيقة بجمعية العلماء المسلمين بالجزائر.

توفي رحمه الله سنة (١٤١١هـ).

من مؤلفاته:

١- من ذكريات سجين مكافح في عهد الحماية الفرنسية البغيض بالمغرب.

٢- المخطوطات المغربية وما تحتاج إليه.

٣- حول سؤال علماء فاس للمجاهدين المحاصرين لمدينة سبتة.

٤- جولة في المخطوطات العربية في إسبانيا.

٥- مؤلفات ابن حزم ورسائله بين خصومه وأنصاره.

٦- هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي؟.

٧- أبو عبد الله بن المناصف المجتهد المغربي.

٨- الإمام الإبراهيمي.

٩- نظرات في الثقافة المعاصرة.

١٠- الدعوة إلى إستقلال الفكر في الإسلام.

١١- كيف استطاع المسلمون المحافظة على النص القرآني؟ (مجلد).

١٢- النظرية العامة للشريعة الإسلامية (مجلدان).

١٣- طبقاتي المجتهدين وأعداء التقليد في الإسلام (خمسة أجزاء)[1].

---

(١) يعد هذا الكتاب من أنفس ما ألف الشيخ رحمه الله ولا يزال مخطوطاً عند أولاده.

١٤- نشأة الفكر الإسلامي الحديث.

١٥- فضل جامعة القرويين في الدفاع عن السيادة الوطنية خلال عصور (مجلدان).

١٦- مشيخة في علوم القرآن والحديث.

١٧- ترجمة لوالده المذكور.

وقد قام رحمه الله بتلخيص عدة مؤلفات.

التعريف بهذا المقال:

هي دراسة تقيمية مبتكرة لمساهمة الكتاب المغربي في الثقافة الإسلامية العربية، وقد نشرت جريدة (العلم) ملخصاً ركزاً للدراسة في صبيحة اليوم الموالي لإلقائها كمحاضرة وعشية نفس اليوم إذيع الملخص من إذاعة فاس، ونشرته جريدة (الأمة الأفريقية) كما أذيع هذا المقال في البرنامج الفرنسي للإذاعة الفرنسية. وألقى المترجم محاضرتين في جامعة جنيف عن الكتاب المغربي عام (١٩٦٠م) نوه بها كل من أستاذ الحضارة الإسلامية في الجامعة ورئيس الوفد الدائم لجامعة الدول العربية في جنيف، كما تحدثت عنها الصحف السويسرية مثل (جورنال جنيف) و(تيربيون دو لوزان) وإذيع في إذاعة لوزان العربية والتلفزة السويسرية.

وهاهي الآن تنشر كاملة بعد تأليفها بأكثر من ثلاثين عاماً، نرجو من الله تعالى أن تكون فاتحة لمزيد من الإطلاع على الكتب المغربية وجهود علماء المغرب في نشر العلوم الإسلامية.

وكتبه:

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

في عمان.

الكتاب المغربي وقيمته

بقلم: محمد إبراهيم الكتاني رحمه الله

رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة- الرباط

الصعوبات التي تكتنف الموضوع

ليس الحديث عن «الكتاب المغربي وقيمته» بالأمر السهل الهين، ذلك أن الكتاب المغربي له تاريخ طويل يستغرق أزيد من ألف سنة، مر فيها بمراحل مختلفة، من نشأة، ونمو، واكتمال، وضعف وانحطاط وتخلف، وانبعاث، تبعاً للعوامل المختلفة التي خضع لها.

ولكي يكون الحديث عن الكتاب المغربي حديثاً علمياً موضوعياً، يجب:

أولاً: وقبل كل شيء، أن يكون لدينا إحصاء دقيق شامل لجميع ما أنتجه المغاربة منذ دخولهم في الإسلام إلى اليوم، ودراسته.

ثانياً: دراسة علمية نقدية، مع مقارنته.

ثالثاً: بما أنتجه غير المغاربة- من عرب وغيرهم- في موضعه. قبل عصره الذي كتب فيه وفي نفس العصر، وبعده.

رابعاً: مع التعرف بتدقيق على الدور الذي قام به في ميدان نشر المعرفة عموماً، والثقافة العربية والإسلامية في المغرب أولاً، ثم في مختلف المناطق الواقعة في جنوب المغرب ثانياً، ومقدار مساهمته في ذلك إلى جانب الكتب العربية الأخرى في مختلف الأقطار، وخصوصاً المجاورة منها، أو التي كانت لها صلات ثقافية وثيقة بالمغرب، وذلك أمر ما نزال بعيدين عنه بعداً شاسعاً.

فأما الإحصاء الدقيق الشامل، فإنه يتوقف:

أولاً: على تسجيل جميع ما يوجد في جميع مكتبات المساجد والزوايا في مدن المغرب وقراه، وفي الجبال والصحاري، وفي القصور الملكية. ومكتبات أهل العلم، وأبناء الأسر العلمية، وهو عمل إذا كنا قد شرعنا فيه منذ الإستقلال، وحققنا فيه نتائج مهمة لا يستهان بها، فإنه ما يزال أمامنا لإتمامه زمن طويل لأسباب عديدة لا مجال للحديث عنها الآن.

ثانياً: ويتوقف على معرفة المخطوطات المغربية المتفرقة في مختلف مكتبات العالم وخصوصاً في أوروبا وأمريكا، وجميع البلاد العربية والإسلامية في أفريقيا وآسيا، سواء في المكتبات المنظمة أو غير المنظمة، والتي تنفرد بمخطوطات مغربية لم يبق لها أثر بالمغرب، وهو أمر ما زلنا لم نشرع فيه لغاية الآن.

ثالثاً: يتوقف على استقصاء ما ورد في كتب التراجم ومختلف المراجع والمصادر من أسماء المؤلفات المغربية.

وسيبقى عملنا- بعد ذلك كله- ناقصاً نقصاً كبيراً، نظراً إلى أن أصحاب التراجم لا يكادون يهتمون بإحصاء مؤلفات من يترجمون لهم، وأنهم لا يترجمون لجميع المؤلفين، وإن كثيراً من المؤلفين المغاربة غادرو المغرب إلى مختلف البلاد شرقاً وغرباً. ولم يصل إلى المغرب من أخبارهم وأخبار مؤلفاتهم إلا القليل.

الحاجة إلى فهرس للمؤلفات المغربية

وإذا لاحظنا أن أهم فهرس جامع للكتب العربية، وهو كتاب((كشف الظنون)) لم يذكر من مؤلفات المغاربة إلا النزر اليسير، علمنا مسيس حاجة المكتبة العربية عموماً والمكتبة المغربية بوجه خاص إلى فهرس جامع للمؤلفات المغربية يملأ هذا الفراغ.

أضف إلى ذلك، أن المكتبة العربية وخصوصاً في الغرب الإسلامي، على إختلاف أقطاره ومناطقه، قد تعرضت فترات طويلة، للنهب والإختلاس، بل والإحراق والإتلاف على يد الصليبيين والمستعمرين: من الاسبانيين، والبرتغاليين، والفرنسيين، والإيطاليين، في الأندلس، وصقلية، وتونس وليبيا، والجزائر، وإفريقيا الغربية، بل وفي المغرب الأقصى نفسه.

ويمكن تقدير فداحة الخسارة الفظيعة التي أصيبت بها المكتبة المغربية من جراء إحتلال مدينة سبتة الغادر، إذا نحن استحضرنا المركز العلمي الممتاز الذي كان لهذه المدينة الشهيدة وما كانت تزخر به من مكتبات عمومية وخصوصية، قال عنها محمد ابن القاسم الأنصاري السبتي في «إختصار كتاب الأخبار، عما كان بسبتة من سنى الآثار»:

«إنها إثنتان وستون خزانة في الزمن القديم قال: وكان منها في زماننا- يعني أول القرن التاسع للهجرة أوائل الخامس عشر للميلاد- سبع عشرةَ خزانة، تسع بدور الفقهاء، والصدور.... وثمان موقوفة على طلاب العلم، كخزانة أبي الحسن الشاري. ذات الأصول العتيقة، والمؤلفات الغريبة. وأعظمها إحدى خزانتي الجامع العتيق».

قال: «وهي في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون، ولا نوع من المعارف أصلاً. مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه، وباقي هذه الخزائن مفترق، منها بالمدرسة الجديدة خزانتان، وبمسجد القفّال خزانة واحدة، وبمسجد مقبرة زكلوا أخرى وهو أكبر مسجد بسبتة بعد المسجد الأعظم منها.... وخزانة أخرى بجامع الربض الأسفل»[1].

وكم ضاع من مؤلفاتنا في شواطئنا الشمالية والغربية التي استمرت سنين طويلة عرضة،

---

(١) نشر ليفى بروفال نصال (ص ١٠)، و مجلة تطوان العددان (٣- ٤) سنة (١٩٥٨- ١٩٥٩) (ص ٨٢- ٨٣).

للإعتداء الصليبي وخصوصاً من قبل البرتغاليين والإسبانيين!

وكم ضاع في الساقية الحمراء وموريتانيا والصحراء الشرقية التي كانت حدودها إلى وقت قريب تتصل بحدود ليبيا.

وكم اختلس سفراء أوربا وعلماؤها وأطباؤها وتجارها من نفائس الكتب ونوادرها التي لا تقدر بمال!

ومن ذلك ما ذكره دوفيردان(Gaston Deverdun) في كتابه عن مراكش(ص ٤٣٦): أن إيتيان هوبير(Etienne Hubert) الفرنسي الذي قضى بمراكش سنة (١٥٩٨م)(١٠٠٦- ١٠٠٧هـ) تعمق فيها في اللغة العربية حتى صار من كبار علمائها. واكتفى بمغادرة هذه المدينة ممتلئاً علماً، ومثقلاً جداً بالمخطوطات العربية التي فاقت ما حمله من الأموال والنفائس الثمينة.

مخطوطات الإسكوريال

كما لا تخفى قصة الثلاثة آلاف مجلد التي أرسلها السلطان زيدان السعدي سنة(١٠٢٠هـ- ١٦١٢م) من مرسى مدينة أسفي إلى مرسى أكادير في ثلاث سفن فرنسية، على يد القنصل الفرنسي كاستيلان(Castellene)، فخان البحارةُ الفرنسيون أصحابُ السفنِ الأمانةَ، وفروا بالكتب عبر البوغاز، ولكن الإسبانيين استولوا على الكتب في عرض البحر. ووضعوها في دير الأسكوريال الشهير بالقرب من مدريد. وفي سنة(١٠٨١هـ- ١٦٧١م) انقضت صاعقة على دير الأسكوريال، فأحرقت أكثر من ألفي مجلد من مخطوطاته العربية.

ومنذ استيلاء الإسبانيين على هذه الكتب وملوك المغرب متمسكون بالمطالبة بإرجاعها إلى المغرب تمسكهم بالمطالبة بإرجاع سبتة ومليلية، وكان ذلك من المهمات التي تسند إلى سفراء المغرب لدى البلاط الإسباني.

فقد ذكر السفير الأنجليزي جون هاريسون في تقريره: أن السلطان زيدان حمله رسالتين: أولاهما: موجهة إلى الحكومة العامة للأراضي الواطئة، يطلب زيدان فيهما من هذه الحكومة أن توسط ملك فرنسا لويس الثالث عشر لدى فيليب الثالث ملك إسبانيا، لإعادة الكتب التي استولى عليها القراصنة الإسبان، وهي بتاريخ(١٤) يناير(١٦١٥م).

وثانيتهما: كلف السفير نفسه بتسليمها إلى الملك الفرنسي يداً بيد[1].

ومن ذلك مطالبة الوليد بن زيدان بكتب الأسكوريال من جوان دوبرادو(Juan De Prado) سنة(١٠٤٠هـ- ١٦٣١م) كما عند دوفيردان في كتابه،(مراكش)(ص ٤٣٥) ومطالبة سفير المولى محمد بن عبد الله أحمد الغزال سنة (١١٨٠هـ-١٧٦٦م) من كارلوس الثالث(Carlos III) (نتيجة الإجتهاد ص ٥٨).

ومطالبة السفير ابن عثمان المكناسي سنة (١١٩٣هـ- ١٧٧٩م) من كارلوس الثالث أيضاً، فأهداه كتباً عربية للمولى محمد بن عبد الله، وقال عن كتب الأسكوريال: إنها محبسة لا يمكن التصرف فيها! حسبما ورد في(ص ١٤٤) من رحلته(الأكسير، في افتكاك الأسير) التي بقيت مدة طويلة معتبرة ضائعة إلى أن وقفت للعثور على ثلاث نسخ منها: أولها: بمكتبة تامكروت واشتريت ثانيتها للخزانة العامة بالرباط، وعثرت على ثالثتها بمكتبة القصر الملكي بالرباط، وفي هذه تصحيحات وزيادات بخط المؤلف. وقد قام مركز البحث العلمي التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط بنشرها بتحقيق صديقنا الأستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة. ورئيس اللجنة التنفيذية لليونسكو.

لويس الرابع عشر

وذكر الكونت فيليب دي طرازي في كتاب((خزائن الكتب العربية في الخافقين)): إن

---

(١) مجلة تطوان العدد التاسع (١٩٦٤): (ص ١٢٧- ١٢٨).

لويس الرابع عشر كلف سفيره دي مونسو (De Monceaux) سنة(١٠٧٧هـ- ١٦٦٧م) بمهمة خطيرة إلى المغرب الاقصى، وهي أن ينقب تنقيباً دقيقاً عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتاعها له وقال له: إن من تلك المخطوطات شيئاً كثيراً في خزائن جامع القرويين بمدينة فاس.

كما كلفه أن يشتري له ألفاً وسبعمائة قطعة من الجلود المغربية الكبيرة الحجم التي يصلح كل منها لتجليد كتابين ضخمين[١].

وفي سنة (١٠٩٢هـ- ١٦٨٢م) كتب لويس الرابع عشر إلى سانت أمان سفيره لدى سلطان المغرب الأقصى: «أنه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية في فاس، ولأجل ذلك أوفد إليه بعض أهل المعرفة للإطلاع عليها، والتثبت من مضامينها، وأوعز إليه أن يسهل مهمتهم[٢].

وفي نفس هذا القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، أنشأ بار تيلمي(Barthelemy) في منزله بباريس خزانة كتب نادرة الوجود بما اشتملت عليه من مخطوطات عربية وافرة اشترى له أكثرها بعض السياح الاجانب من بلاد الشام واليمن والمغرب الأقصى[٣].

وأما بعد الإحتلال الأجنبي للمغرب

فقد تهافت المستعمرون على إختلاس المخطوطات والإعتداء عليها.

ففي الخزانة العامة بالرباط قائمة بأسماء المخطوطات التي ضاعت في فترة الإحتلال،

---

(١) خزائن الكتب: (٢/ ٥٨٦-٥٨٧).

(٢) دي طرازي: (٢/٥٨٨).

(٣) نفس المصدر (٢/ ٦١٣).

وأخبرني صديقي الإمام محمد البشير الإبراهيمي مدّ الله في عمره، عندما كنت ضيفه بتلمسان في ربيع سنة(١٩٣٦م) إن المستعمر بيل كان يعرض في(المدرسة) بتلمسان مجموعة من المخطوطات العربية في الرياضيات والفلك ونحو ذلك، قال: وهي مما إختلسه من مكتبة القرويين عندما كان يشرف على تسجيل كتبها فيما بين(١٩١٤- ١٩١٦م)!

كما تحدث زميلنا الأستاذ محمد العابد الفاسي في رسالته «الخزانة العلمية بالمغرب» عن بعض نفائس المخطوطات التي كانت بمكتبة القرويين ولم يبق لها أثر، ومنها ما بقي إلى ما بعد الحماية وسجله بيل في القائمة المطبوعة بفاس بكتب المكتبة، مثل جزء نزهة المشتاق، ويقال إن السلطات الفرنسية استعادته من المكتبة بالتعرضة في معرض فاس، ولكنها لم ترده، ويقال إنه أرسل إلى باريس.

ونشرت جريدة العلم سنة(١٩٥٦م) رسالة من مراسلها في الريصاني ذكر فيها أن الجيش الفرنسي، عندما إحتل الريصاني أحرق المكتبة التي كانت بضريح مولاي علي الشريف جد الأسرة المالكة.

وأخبرني الاستاذ الزيتوني محافظ مكتبة المعهد الإسلامي بتارودانت أن الجيش الفرنسي أحرق كذلك مكتبات بالإقليم السوسي عند إحتلاله.

وإنه لمن المؤسف أشد الأسف أن تبقى المكتبة المغربية خالية من كتب تسجل فظائع الإحتلال الأجنبي في مختلف أطراف البلاد.

وقد كان من نتائج اعتداءات المستعمرين وعملائهم على المخطوطات وسرقتها واغتصابها أن صار المخلصون يتسترون على ما عندهم منها ويخفونها حيث لا تصل إليها الأعين مما عرض كثيراً منها للضياع أيضاً!

وإذا كان بعض ما نهب واختلس بطرق دنيئة قد وضع في بعض المكتبات المنظمة بحيث يسهل أحياناً على بعض الباحثين الإطلاع عليه والإستفادة منه. رغم ما يعترض ذلك من

صعوبات في بعض الأحيان، فإن كثيراً مما اختلس قد إنقطع خبره واكتنف مصيره الغموض والإبهام.

ونشير بهذه المناسبة الى وجوب صدور تشريع يحمي تراثنا الثقافي، فيمنع بتاتاً خروج أي مخطوط من المغرب، ويعاقب المخالف باقصى العقوبات خصوصاً، ونحن نساعد على تصوير كل مخطوط يطلب منا تصويره مهما كانت أهميته وقيمته، ولا نثير في وجه طالبه أية صعوبة، وعندنا من الإمكانيات المساعدة على ذلك ما لا يوجد نظيره في اي قطر آخر من الأقطار العربية.

هذا عن الإحصاء الدقيق الشامل.

وأما الدراسة العلمية النقدية المقارنة

فيكفي لبيان بُعد ما بيننا وبين الوصول إلى نتائج قطعية فيها، أن نشير إلى أن الكتاب المغربي قد تناول- بنسب مختلفة- جل الموضوعات التي تناولها الكتاب العربي على العموم.

فقد ألف المغاربة في علوم القرآن، من رسمه وقراءاته وتجويده وتفسيره ونحو ذلك.

وفي علوم الحديث رواية ودراية. فألفوا في مصطلح الحديث، وفي السيرة النبوية وفي فقه الحديث، وفي اسانيد الكتب والفهارس وتراجم الرجال، وفي الجرح والتعديل وغير ذلك، كما وضعوا الشروح والتعاليق على كثير من كتب الحديث.

وألفوا في اصول الفقه وفروعه، من عبادات ومعاملات، ومواريث، وتوثيق، وقضاء، وفي أحكام الجهاد ومناسك الحج. وفي النوازل والأحكام. وفي الفقه المقارن وفي قواعد الأحكام والفروق والحسبة، والسياسة الشرعية، ونحو ذلك.

وألّفوا في العقائد والكلام والمنطق والفلسفة والجدل والمناظرات والرد على المبتدعة.

وفي التصوف والأخلاق، والمواعيظ والمواجد والأذواق والمناقب وفي الأوراد والأذكار والدعوات والتصليات على النبي ﷺ وفي شرح أسماء الله الحسنى، وخواصها وفي سر الحرف وفي السحر وتعبير الرؤيا، ونحو ذلك.

وألفوا في التربية والتعليم وتقسيم العلوم والسياسة والنظم الإدارية وفي نصح الملوك ونقد المجتمع.

وفي الحساب والتوقيت والتعديل والجبر والهندسة والفلك والأزياج والتنجيم.

وفي الطب والصيدلة والكيمياء والفلاحة والنبات والحيوان والبيطرة والطبيعة وعلوم الحرب والبحر.

وفي الجغرافيا والرحلات وتاريخ الدول والملوك والمدن والأقاليم والقبائل وعلم الأنساب.

وفي النحو والصرف واللغة وقواعد الرسم والبلاغة والعروض والقوافي والموسيقى.

وفي فنون الأدب المختلفة، من أمثال وحكم ومحاضرات ومحاكمات أدبية ومقامات وفي الحماسة والشعر بموضوعاته المختلفة على العموم فصيحاً وشعبياً، وفي النثر الفني، والألغاز، والهزل والمجون، والقصص والخرافات والأساطير وغير ذلك.

وقلّ أن يوجد موضوع خاضه الكتاب العربي لم يساهم فيه الكتاب المغربي كما أنه لا تكاد توجد مشكلة فكرية أو اجتماعية شغلت بال المجتمع الإسلامي لم يتناولها الكتاب المغربي بالدرس والتمحيص.

والوقت الضيق المحدد لهذا الحديث لا يسمح بإيراد أي مثال لشيء مما ذكرناه.

ولكنّا نورد كلمة موجزة عن مساهمة الكتاب المغربي في حركة(التعريب) أي الترجمة عن اللغات الأجنبية إلى العربية.

من المعلوم أن هذه الحركة عرفت عصرها الذهبي على عهد المأمون العباسي في الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الثلث الأول من القرن التاسع الميلادي ثم لم تستمر بعد ذلك إلا قليلاً.

ولعل آخر كتاب تُرجم إلى العربية في القرون الوسطى في الشرق العربي هو كتاب ((شاهنامة)) الفردوسي التي عربها الفتح بن علي البنداري الأصبهاني سنة(٦٧٩هـ-١٢٩٧م))[1].

ثم لم تعد هذه الحركة للظهور في الشرق العربي إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على عهد محمد علي في مصر،كما هو معلوم[2].

أمّا في المغرب فقد استمرت هذه الحركة إلى سنة(١٠٠٠هـ- ١٥٩٢م) وما بعدها.

فقد ذكر المقري التلمساني في((روضة الآس، العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس)) الذي بقي ضائعاً مدة مديدة إلى أن وقع العثور عليه أخيراً بالقصر الملكي ونشرته المطبعة الملكية:((إن بعض أكابر الروم قدم على أحمد المنصور الذهبي وأتحفه بكتاب في الطب مكتوب بالقلم الأعجمي، فمر به العالم الجليل الطبيب أبو القاسم الوزير الغساني من أهل فاس وجعل له خطبة، وزاد فيه زيادات وسماه((مغنى الطبيب عن كتب أعداء الحبيب))[3].

وسيأتي الكلام على كتاب ((العز والمنافع))، الذي ترجمه أحمد بن قاسم الحجري ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده.

---

(١) كشف الظنون (٢/ ١٠٢٦).

(٢) جرجي زيدان ((تاريخ آداب اللغة العربية)): (٤/ ١٥٧).

(٣) (ص ٢١٧).

وذكر دوفيردان (Caston Deverdun) في كتابه ((مراكش)) إن انتوان دوسانت ماري (Antoine de Sainte-Marie) الدومينكاني الأرلندي، الذي كان أسيراً بمراكش اشتغل مدة ثمان سنوات بأمر من زيدان بن المنصور بترجمة الكتب اللاتينية التي كانت عند زيدان إلى اللغة القشتالية، وعنها تترجم إلى اللغة العربية[1].

وأهم عمل مغربي وصلنا في ميدان التعريب، هو كتاب ((الجامع المقرب النافع المعرب)) الذي عثرنا عليه بمكتبة القصر الملكي بالرباط، وهو تعريب لأرصاد لالاند الفرنسي الذي كان رصده الاخير سنة (١٧٧٣م) (١١٨٦- ١١٨٧هـ).

وتقع الترجمة في (ثلاثة) مجلدات ضخام في الحجم الكبير فيها تسعمائة وثمان وسبعون ورقة وفيها أربعة آلاف ومائتان وعشرون فصلاً. وتشتمل على كثيرٍ جداً من الجداول والأشكال الهندسية.

وكان الفراغ منها في (٢٨) رمضان (١٢٦٨هـ) (١٦) يوليو (١٨٥٢م).

وقد قام بالتعريب جماعة من المعربين بالقصر الملكي بفاس بأمر من السلطان محمد الرابع رحمه الله وتحت إشرافه وتوجيهه، وبعدما أتموا عملهم بصفة نهائية كتب السلطان بنفسه مقدمة للترجمة نلخصها فيما يلي:

((إني لما نظرت في العلوم الرياضية التي منها الحساب والهيئة والهندسة، وجدت الوقوف على كنه التحقيق المحض منها لا يكون بمجرد التقليد فيها، لأن النفوس الكاملة لا تطمئن إلا باليقين الذي تسلم حججه، بعد أن تغوص في بحاره وتخوض لججه، ولما كان لا بد فيه من الرصد للأجرام ألعوبة، ومشاهدة أمكنتها من أفلاكها ومقادير حركاتها في الأزمان المختلفة.

---

(١) كتاب مراكش: (ص ٤٣٤).

وكان الرصد المذكور في بلادنا وزماننا متعذراً أو متعسراً، ولكن ما لا يمكن كله، لا يترك كله، بحثنا من أجل ذلك كل البحث عن أقرب الأرصاد إلى زماننا، فوجدنا كتاباً حفيلاً عجيباً، جامعاً لكل ما يحتاج إليه الناظر في هذه الصناعة، بحيث لا يتوقف على غيره من الأوضاع... مع ما اعتمده مؤلفه والتزمه من التحرير البالغ غاية الغايات، والتوقيف على كنه العويصات وكشف الخفيات، وتأييد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية، والأشكال الهندسية والأمثلة العددية، والأقيسة الجبرية، ورد الفروع إلى القديمة بعضها ببعض، ثم أخذ ما وافق العيان والرصد الجديد، وإلغاء ما دون ذلك مما تكذبه المشاهدة ويقوم البرهان على بطلانه. إلا إنه باللسان والقلم الأعجميين، لأن مؤلفه رومي من أهل باريز.

وكان من فضل الله علينا أن حضرتنا العالية بالله قد احتوت على جماعة وافرة ممن آوتهم ظلال دولتنا الشريفة المنصورة الظاهرة، ربيناهم في ختمتنا أحسن تربية، وصفيناهم لا قترابنا أكمل تصفية، وأطلعناهم لمكان التخصيص على أسرار هذه العلوم وغذيناهم من جنى هذه الفنون بأطيب الطعوم، حتى أصبحت حضرتنا العزيزة كعبة للنجباء الحذاق، ومطافاً للعلماء من جميع الآفاق، من كل عارف بالألسنة والاقلام، متهيء لاكتساب الكمالات بالاستعلام، فأمرناهم بتعريب الكتاب المذكور وإخراجه من الظلمات إلى النور، فصرفوا كل عناية إلى ذلك، ودأبوا عليه آناء الليل وأطراف النهار مدة مديدة، معاناه أكيدة، ومشقة شديدة.

وكل ذلك بمرأى منا ومسمع، ومحضر لنا ومجمع، تعرض علينا كل يوم مخرجاتهم فنبالغ لها بالتنقيح والتصحيح، ونرجح منها ما هو داع إلى الترجيح، حتى برز بحمد الله في أحسن صورة وأجملها، وأتم الوجوه وأكملها. وهو مرتب الآن بمكتبة القصر الملكي تحت رقم (٢٦٨٢م).

وذكر صديقنا الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه ((تاريخ المغرب)) (تحت الطبع):

أن القنصل الفرنسي لوكونت دوسكواط تحدث عن إمام محمد الرابع باللغة الفرنسية، وقيامه بتعريب بعض الكتب العلمية مثل كتب نيوتن، في علم الفلك، على يد ترجمان إنجليزي من مالطة اعتنق الإسلام. وقد أكد ذلك عام (١٨٧١م- ١٢٨٨هـ) وزير فرنسا بطنجة طيسو.

فكم من جهود يجب أن تتوفر- ياترى- على دراسة هذا التراث الضخم في مختلف العصور؟ ومقارنته بغيره؟ قبل أن نستطيع تقييمه تقييماً نزيهاً لا تحيز فيه ولا إجحاف؟ نعم إننا قد بدأنا السير في تحقيق هذا الهدف الوطني، وخصوصاً بعدما أنشئت شهادة الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس.

فقد أوليت عناية خاصة لتوجيه اهتمام طلبتي من حملة شهادة الإجازة إلى الاعتناء بتحقيق مخطوط مغربي، واقترحت على بعضهم مخطوطات معينة لدراستها، وقد نال البعض منهم شهادته بالفعل، ولكن مما يؤسف له أن المطبعة لم تخرج لغاية الآن شيئاً من المخطوطات التي قاموا بدراستها[1].

على أننا- رغم هذا التاريخ الطويل الذي يزيد على ألف سنة، ورغم هذا الشمول لمختلف الموضوعات، ورغم هذا الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها شمالها وجنوبها.

ورغم ضياع ما ضاع واختفاء ما اختفى- مازلنا نحتفظ- رغم ذلك كله وكثير غيره- بالآلاف من المؤلفات المغربية، ولدينا قليل من القوائم والدراسات التي تسمح بالحديث عن الكتاب المغربي حديثاً يتضمن الخطوط العريضة الكبرى، مثل:

كتاب النبوغ المغربي في الادب العربي للأستاذ عبد الله جنون، ومقالات الأستاذ محمد

---

(١) بعد القاء هذه المحاضرة أخرجت المطبعة كتاب «الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي» للأستاذ محمد حجي. وما زلنا ننتظر تحقيقه لكتاب «البدور الضاوية» لسليمان الحوات.

الفاسي عن تاريخ الأدب المغربي المبعثرة في الصحف والمجلات، والعلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للأستاذ محمد المنوني، ودليل مؤرخ المغرب للأستاذ عبد السلام ابن سودة، وسوس العالمة للأستاذ المرحوم محمد المختار السوسي. والطب والأطباء بالمغرب للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، وتاريخ الأدب الجغرافي والعربي للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، والعلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي للعالم الإيطالي آلد وميلي ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، وتراث العرب العلمي لقدري حافظ طوقان، وفهرس الفهارس والإثبات لعبد الحي الكتاني.

الكتاب المغربي جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي

والملاحظة البارزة الأولى التي أبداها الباحث في الكتاب المغربي. هي أنه وإن كان يختلف عن الكتاب العربي في المشرق، في أن له:

١- خطاً عربياً خاصاً مشتقاً من الخط الكوفي القديم، ويتميز بزيادة الحروف المعقودة على أحرف الهجاء العربي، وينقط الفاء بواحدة من أسفل، والقاف بواحدة من فوق. «راجع مثلاً عبد الفتاح عبادة في كتاب (انتشار الخط العربي)»[١].

٢- وترتيباً للحروف يختلف عن ترتيبها في المشرق.

٣- وأرقاماً عربية خاصة هي غير الأرقام الهندية المستعملة عند عرب المشرق، بل أن الموثقين بفاس لهم أرقام أخرى غير النوعين السابقين يؤرخون بها الوثائق والعقود.

وكثيراً ما تؤرخ بها المخطوطات وتسمى بالقلم الفاسي. وقد خصت بالتأليف مثل

---

(١) (ص ٧٦- ٧٩).

كتاب أبي العباس ابن البنا المراكشي «في أعمال الحساب والزمام»، وبآخره رجزية في ذلك.

ورسالة غير منسوبة «في أشكال الزمام والعمل به» وبأولها نظم في الموضوع[1]، ومنظومة الإمام أبي السعود الفاسي في (ثلاثين) بيتاً، وقد شرحها أبو العباس سكيرج في «إرشاد المتعلم والناسي، في صفة أشكال القلم الفاسي»، ذكر فيه أن هذا القلم مأخوذ من القلم الرومي. وهو مطبوع على الحجر بفاس ثلاث ورقات كما ترجمه إلى اللغة الفرنسية فيالا (Viala) بعنوان «الخط كذا» الفاسي (L'expos'e des signes de Fe's) وقد طبع في الجزائر سنة (١٩١٧م).

فإن الكتاب المغربي في صميمه وعمقه- رغم هذه الاختلافات- جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي.

ذلك أن المغرب- وإن كان قد انفصل سياسياً عن الخلافة الإسلامية بالمشرق في عهد مبكر. وأنشأ له خلافة خاصة،- فإنه- من الناحية الثقافية- قد بقي يكوّن مع البلاد ذات الثقافة العربية في آسيا وافريقيا وأوروبا وحدة ثقافية متينة العرى متداخلة الأجزاء. ملتحمة الأطراف متشابكة الفروع والأغصان.

وهكذا كان الكتاب العربي، من الحجاز، أو اليمن، أو العراق، أو ما وراء النهر، أو بلاد العجم، أو الهند، أو السند، أو بلاد الروم (الترك) أو الشام وفلسطين أو مصر، أو صقلية، أو المغرب الأدنى، أو المغرب الأوسط، أو الاندلس أو السودان المغربي على اختلاف أقاليمه وأقطاره، يجد مكانه- إلى جانب الكتاب المغربي- في المكتبات المغربية، في المساجد والمدارس، والربط والزوايا وفي قصور الملوك والأمراء والوزراء، والرؤساء، وفي

(١) رقم (ك١٠٦١) بالخزانة العامة بالرباط.

بيوت العلماء والأسر العلمية، ويتداول بين أيدي القراء في فاس وتازة، ومكناس، وزرهون، وسبتة، وطنجة، وتطوان، ووازان، والريف، والجبل، والشاون، والمزمة، والقصر الكبير، وسلا، والرباط، وتادلا، ودكالة، وأسفي، واغمات، ومراكش، والدلا، وورودانة، وايت عياش، وسجلماسة، وفيكيك، والقنادسة، وكرزاز، وكلزيم بوادي الساورة، وسالي، وتيميمون، والركان، وكنتة، وبتوات، وتامكروت، وشنقيط، وطنطان، والساقية الحمراء، وولاته. وغيرها من مختلف المراكز العلمية الأخرى بالمغرب، ويتناول فيها بالنسخ والزخرفة، وبالطبع بعد أن دخلت المطبعة إلى المغرب، وبالدرس، والشرح، والتعليق، والرواية، والنقد والتقريظ.

كما كان الكتاب المغربي من جهته، ينتقل إلى مراكز الثقافة العربية في المشرق والمغرب، فيحتل مكانته بين الكتب العربية الأخرى.

مما جعل الكتاب العربي في جملته يكون وحدة متكاملة، لا يكاد جزء منها يستغني عن بقية الأجزاء الأخرى، وبذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على أتم الوجوه.

ويمكن للمرء أن يتتبع هذه الحقيقة التي أشرنا إليها في كثير من المصادر والمراجع وعلى الأخص في كتب التراجم والفهارس والرحلات وما أشبهها. وفي كتب الدراسة بالمغرب، ما بين متون وشروح وحواش وفي الكتب التي يتدارسها أصحاب الطرق المختلفة فيما بينهم، وفي أورادهم وأحزابهم وفي كتب المطالعة، وفي المطبوعات المغربية وفيما نشره المغاربة من كتب خارج المغرب وكذلك في الموسيقى والأشعار التي تغنى بها الآليون والمسمعون، ليجدها في كل ذلك بارزة للعيان بكل وضوح.

كتب الدراسة بالقرويين بفاس

ولإبراز هذه الحقيقة أمام أعين الذين لا يعرفون الثقافة العربية، نقدم فيما يلي قائمة بأسماء كتب الدراسة التي أدركناها بالقرويين فيما بين (١٣٣٧هـ ــ ١٩١٨م)-

(١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) قبل تنظيم التعليم بها.

وأكثر هذه الكتب قد درسناها نحن بالفعل على أشياخنا بالقرويين أو مسجد من المساجد الأخرى، إلى جانب العدد العديد من الكتب التي درسناها فيما بيننا بدون أستاذ إذ لم تكن من كتب الدراسة المعتادة، وقد اخترنا هذه الحقبة بالخصوص لأسباب متعددة.

منها أننا درسنا بالقرويين فيها فنحن إذ نتحدث عنها نتحدث عن أشياء عشناها يومياً لسنوات عديدة رفقة مئات الطلبة الذين مازال الكثير منهم حياً يرزق.

ومنها أن ما كان الحال عليه إذ ذاك بالقرويين كان استمرار الحالة دامت بالقرويين عشرات السنين، من غير أن يدخل عليها كبير تغير.

وما يلاحظ في القائمة التالية من ذكر حواش وشروح لمؤلفين متأخرين، بل فيهم من كان مايزال حياً إذ ذاك، لا يقدح فيما قلناه، فإن هذه الحواشي والشروح هي لشيوخ كبار السن، وكان كثير من المدرسين من تلاميذهم، وهؤلاء الشيوخ من جهتهم كانوا حريصين على المحافظة على ما كانت عليه حالة القرويين من قبل، فكانوا هم أنفسهم استمراراً للماضي من غير كبير تغير.

ومنها أنه بعد هذه الحقبة نظمت الدراسة بالقرويين، فتغيرت الحالة كثيراً عما كانت عليه من قبل إذ تقررت دراسة علوم وكتب لم تكن تدرس بالقرويين أو بعد العهد بدراستها فيها ومن الكتب التي قررت ما هو حديث بحيث يعتبر تدريبه بالقرويين ثورة على كثير من أوضاعها السابقة.

وليس معنى ذلك أن كتب الدراسة بالقرويين بعد تنظيم التدريس بها لا تتفق، والحقيقة التي كانت من قبل حول الكتاب المغربي، وكونه لا يتجزأ من الكتاب العربي، فقد استمرت هذه الحقيقة بعد تنظيم التعليم بالقرويين، كما كانت من قبل رغم تقرير كتب جديدة وإهمال كتب كانت من كتب الدراسة، ولكن ما دخل على كتب الدراسة بعد

تنظيم توجيه يجعل الحال مختلفاً عما استمر الحال عليه قبل ذلك سنين عديدة.

لقد كان النحو يدرس بآجرومية ابن آجروم الفاسي بشرح خالد الأزهري المصري. وحاشية ابن الحاج الفاسي، أو حاشية أبي النجا المصري، أو بشرح السوداني، وحاشية الوزاني الفاسي.

وتدرس ألفية ابن مالك الأندلسي نزيل دمشق، ودفينها بشرح المكودي الفاسي، وحاشية ابن الحاج الفاسي، وقد يراجع الأستاذ حواشي الطرنباطي الفاسي على الألفية، أو شرح الأشموني وحاشية الصبار المصريين.

وأوضح المسالك لابن هشام المصري بشرحه التصريح للأزهري، وقد يراجع الأستاذ حواشي ابن كيران الفاسي على التوضيح.

ونظم الجمل للمجراد السلوى بشرح الرسموكي الجزولي وحواشي الوزاني الفاسي، ويدرس تصريف الأفعال بلامية الأفعال لابن مالك بشرح باحراق اليمني، وحاشية ابن الحاج الفاسي.

وتدرس العقائد وفقه العبادات ومبادىء التصوف بنظم المرشد المعين لابن عاشر وشرحه مختصر الدر الثمين لميارة، حاشية ابن الحاج وحاشية الوزاني وأربعتهم فاسيون.

ويدرس قسم العقائد من المرشد بشرح ابن كيران وحاشية القادري الفاسيين.

وتدرس العقائد أيضاً بعقيدة أم البراهين للسنوسي التلمساني بشرحه وحواشي الفاسي أو حواشي الدسوقي المصري.

وتدرس العقائد وفقه العبادات والمعاملات برسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح أبي الحسن وحاشية العدوي المصريين، وقد يراجع الأستاذ شرح زروق الفاسي دفين ليبيا، وشرح جسوس الفاسي وغيرهما من الشروح.

ويدرس مختصر خليل في **الفقه** بشرحي الخرشي والزرقاني- وثلاثتهم مصريون- بحواشي بناني الفاسي والرهوني الوزاني على شرح الزرقاني، أو بشرح الدردير وحواشي الدسوقي المصريين.

وتدرس **المواريث** بباب الفرائض من مختصر خليل بشرح الخرشي وحواشي شيخنا ابن الخياط الفاسي أو بشرح بنيس وحواشي جنون الفاسيين وحواشي ابن خضراء السلوي قاضي فاس.

ويدرس **فقه المعاملات** بتحفة ابن عاصم الأندلسي بشرح ابن سودة، وحواشي الوزاني، أو بشرح ميارة وحواشي ابن رحال وأربعتهم فاسيون.

ويدرس **فقه القضاء** بلامية الزقاق بشرح ميارة وحواشي الشدادي وشرح ابن سودة، وحواشي التسولي أو الهواري أو الوزاني وكلهم فاسيون، وقد يراجع الأستاذ شرح أبي حفص الفاسي.

وتدرس **الوثائق** بوثائق بناني فرعون بشرح الهواري وكلاهما فاسي.

ويدرس **المنطق** بنظم السلم للأخضري البسكري من الجزائر بشرح بناني وحواشي ابن سودة أو قصارة، وثلاثتهم فاسيون، أو بشرح القويسني وحواشي مصطفى البولاقي المصريين.

وتدرس **أصول الفقه** بورقات إمام الحرمين النيسابوري الجويني بشرح الحطاب الطرابلس الأصل المكي المولد الذي هو في وقت واحد شرح للورقات، ولشرح الجلال المحلي المصري عليها، وعلى شرح الحطاب حاشية لابن خضراء السلوى قاضي فاس. وبجمع الجوامع لابن السبكي بشرح الجلال المحلي، وحواشي البناني، والعطار والعبادي وأربعتهم مصريون.

وتدرس **البلاغة** بتلخيص القزويني الشامي المصري مفتاح العلوم للسكاكي، الخوارزمي، بشرحي سعد الدين التفتازاني (من خراسان) المختصر والمطول، وحواشي الدسوقي أو البناني المصريين، أو ابن منصور الفاسي على الشرح المختصر. وحواشي عبدالحيم السيالكوتي (الهندي) أبو حواشي السيد الشريف الجرجاني وقد يراجع الطالب شرح الولالي المكناسي على التلخيص كما يدرس البيان أيضاً بمنظومة ابن كثير في الاستعارات بشرح البوري، وحواشي ابن الخياط والوزاني وكلهم فاسيون.

ويدرس **العروض والقوافي** بالمنظومة (الرامزة) للخزرجي الفاسي مولداً السكندري مدفنا بشرح الزموري الفاسي.

ويدرس **علم الوضع** برسالة عضد الدين الإيجي الشيرازي بشرح أبي القاسم الليثي السمرقندي، وحواشي ابن سودة الفاسي والدسوقي المصري.

ويدرس **الحساب** بكتاب كشف الأسرار للقلصادي الأندلسي دفين تونس، وبمنية ابن غازي المكناسي ثم الفاسي بشرحه، وحاشية بنيس الفاسي، والسملالية بشرح الرسموكي وكلاهما من سوس.

وتدرس **مبادىء التوقيت** بنظم (المقنع) للمرغيثي السوسي المراكشي بشرحه، وروضة الأزهار للجادري الفاسي بشرح البوعقيلي المكناسي ثم الفاسي، ونظم ابن عاشر في الربع المجيب بشرح الأغزاوي وكلاهما فاسي، والرسالة الفتحية لسبط المارديني المصري بشرح القشتالي الفاسي.

ويدرس **رسم المصحف** وضبطه بمورد الظمآن للخراز بشرحه فتح المنان لا بن عاشر وهما فاسيان.

ويدرس **تجويد القرآن** بمنظومة ابن الجزري الشامي بشرح زكريا الأنصاري المصري.

وتدرس القراءات بالشاطبية للشاطبي الأندلسي نزيل مصر بشرح ابن القاصح البغدادي. والدرر اللوامح لابن بري الرباطي التازي بشرح جموع الفاسي.

إلى كتب أخرى في القراءات كان يدرسها المتخصصون وكانوا إذ ذاك كثيرين في القرويين.

وفي التصوف كانت تدرس حكم ابن عطاء السكندري بشرح ابن عباد الرندي ثم الفاسي، وقد يراجع الأستاذ شروح زروق وابن كيران الفاسيين وابن عجيبة التطواني.

وفي المدح النبوي كانت تدرس همزية البوصيري الصنهاجي المصري بشرح بنيس الفاسي، وبردة المديح للبوصيري بشرح خالد الأزهري المصري وعليه حاشية القادري الفاسي.

ويدرس مصطلح الحديث بطرفه أبي حامد الفاسي بشرح أبي عبد الله الفاسي، وعليه حواشي ابن الخياط وجنون والوزاني وخمستهم فاسيون.

ومن كتب الحديث الأربعون للنووي الشامي بشرح الفشني أو الشبرخيتي المصريين والهيتمي المصري ثم المكي.

وشمائل الترمذي الخراساني بشرح جسوس الفاسي، وقد يراجع الطالب شرح ابن سلطان المكي أو المناوي المصري.

وصحيح البخاري دفين سمرقند بشرحي القسطلاني وابن حجر المصريين وحواشي ابن سودة وابن زكري والفاسي الفاسيين.

وصحيح مسلم النيسابوري بشرحي النووي الشامي والأُبي التونسي.

وموطأ مالك بن أنس المدني بشرح الزرقاني المصري وتعليق جنون الفاسي.

وكتاب (الشفا) لعياض السبتي دفين مراكش بشرحي علي القاري ابن سلطان الهروي

ثم المكي والشهاب الخفاجي المصري.

ويضاف إلى ذلك بقية الكتب الست التي كانت تدرس بالقصر المكي بمحضر السلطان، ويحضرها كبار العلماء بالقرويين.

وكانت دروس القصر هذه منذ عهد الموحدين مثار الكثير من النقاش والجدال بين العلماء الذين يحضرونها. وكان الملوك يشجعون كل صاحب رأي على التأليف في الموضوع، وإذا كان السلطان نفسه من أهل العلم ساهم هو أيضاً بالتأليف في المسألة، فاجتمع بذلك على تعاقب العصور مجموعة من المؤلفات المغربية والرسائل، فريدة من نوعها، وهو موضوع جدير بالدراسة خاصة في رسالة جامعية.

وكان الكتابان اللذان درسا بفاس في المدة المذكورة هما سنن أبي داوود السجستاني دفين البصرة، وجامع الترمذي الخراساني.

هذه هي على العموم كتب الدراسة بجامع القرويين وبقية المساجد الأخرى في الحقبة المذكورة.

ولكن بعض المدرسين لم يلتزموا هذه الكتب بخصوصها بل تعدوها إلى كتب أخرى درسوها مع بعض الطلبة مثل:

تفسير الجلالين المحلي والسيوطي المصريين، وأحكام القرآن لابن العربي المعافري الأندلسي دفين فاس، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجة القزويني، والمجتبى للنسائي الخراساني، ومسند أحمد بن حنبل البغدادي، وبلوغ المرام لابن حجر العسقلاني المصري، وأحاديث الشهاب للقضاعي المصري، ونخبة الفكر لابن حجر بشرحه عليها، والنقاية للسيوطي في أربعة عشر علماً بشرحه عليها، ودلائل الخيرات في الصلاة على النبي ﷺ للجزولي، والقوانين الفقهية لابن جزي الأندلسي، ومغني اللبيب لابن هشام المصري، وشرح ابن عقيل المصري على الفية ابن مالك بحاشية الخضري المصري.

ونظم الجوهر المكنون في علوم البلاغة للأخضري البسكري بشرح الدمنهوري وحاشية مخلوف المنياوي المصري، ومقامات الحريري البصري وديوان الحماسة في أشعار العرب جمع أبي تمام الشامي المصري العراقي، والكامل في اللغة والأدب للمبرد البصري البغدادي، وقصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير بشرح ابن هشام المصري وجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني بشرح ولده عبد السلام المصريين، وعقيدة التوحيد لأبي السعود الفاسي بشرحها الوارد والصادر لولد حفيده أبي القاسم بن أحمد، وفقهيته بشرح جسوس الفاسي، وفريدة الدردير في العقائد بشرحه عليها.

وإسعاف الراغب الشائق لابن جعفر الكتاني الفاسي دفينها، ونزيل المدينة المنورة ثم دمشق الشام وتصلية ابن مشيش المغربي.

يضاف إلى ذلك كله العدد العديد من الشروح والحواشي والمصادر والمراجع المختلفة التي كان الأستاذ ونجباء الطلبة يرجعون إليها لتحضير الدروس، والتي هي أيضاً من مختلف البلاد ذات الثقافة العربية.

ومن المدرسين بالقرويين من كان يكتب شروحاً وحواشي وتعاليق على الكتب التي يدرسها.

والمكتبة المغربية مليئة بالمؤلفات العديدة من هذا النوع.

وكذلك كان يفعل والدي أبو العباس أحمد بن جعفر الكتاني الفاسي رحمه الله في دروسه، في تفسير بعض الآيات القرآنية. ولصحيح البخاري، وشمائل الترمذي، وعقائد رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وتصوف المرشد المعين، وشرح ميارة للمرشد، وبردة البوصيري وهمزيته، وشرحها لبنيس، ودلائل الخيرات، وحكم ابن عطاء الله وتصلية ابن مشيش وإسعاف الراغب لأخيه، ودروسه الوعظية مثل كتاب المتاجر الفاخرة في الاستعداد للأخرة وكتاب تنبيه القلب اللاهي عن التناجي الإلاهي، وغير ذلك من مؤلفاته

التي تناهز مائة مؤلف.

وكذلك كان يفعل أيضاً شيخنا أبو عبد الله بن عبد المجيد أقصبي رحمه الله في حاشيته الحفيلة، على شرح الفشتالي على الرسالة الفتحية في الربع المجيب لسبط المارديني، وحاشيته على شرح ابن القاصح على الشاطبية في القراءات وحاشية على شرح اِبن غازي لمنيته في الحساب.

وكذلك كان يفعل شيخنا أبو العباس بن الخضر العمراني رحمه الله في شرحه لأحاديث القضاعي. وكان من الطلبة مَنْ يكتبون أشياء مما يسمعونه من شيوخهم أثناء الدرس.

كما كتب شيخنا أبو العباس العمراني حواشي على شرح الزرقاني على مختصر خليل مما التقطه من دروس شيخه أبي عبد الله بن جعفر الكتاني رحمه الله وغيره كما ذكر في فهرسته.

وكما كتبت كثيراً من تقارير شيخنا ابن جعفر رحمه الله على مادرسه من مسند أحمد بن حنبل بالقرويين بفاس بعد رجوعه من الشرق، بل كان من الطلبة من يكتب من عندياته شروحاً لما يقرأونه من متون وحواشي على الشروح، أو رسائل في بعض الموضوعات المدروسة.

وقد كتبت وأنا صغير حاشية على شرح المكودي على الآجرومية وحاشية على شرح شيخنا المرحوم أبي عبد الله بن عبد القادر بناني على منظومة الشيخ الطيب ابن كيران في الاستعارات، ومن الطبيعي أن لا يرضى الأساتذة عن أعمال الطلبة هذه، وأن يعتبروها مجهوداً ضائعاً، وقد سمعت والدي رحمه الله يذكر عن والده شيخ الجماعة أبي المواهب جعفر بن إدريس الكتاني رحمه الله: أنه وقف على أوراق من تأليف لأحد أولاده رحمهم الله وكان ما يزال طالباً فكتب على ظهره: «بكاء المقلتين بالعندم، على من أراد أن يتزبب قبل أن يتحصرم!».

ولعل هذا ما يفسر وجود رسائل ومؤلفات لعلماء كبار لا تتناسب ومقامهم العلمي، فلعلهم كتبوها أيام الطلب ثم لم تسمح نفوسهم باتلافها بعد ذلك فبقيت تحمل طابع المرحلة التي كتبت فيها.

ومما يلحق بكتب الدراسة التي ذكرنا كتب الوعظ التي يتلوها (المورق) قبل بعض الصلوات، أو بعدها فوق كراس خاصة بالقرويين وغيرها من المساجد والجوامع، مثل:

كتاب «الترغيب والترهيب» للمنذري المصري و «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني و «الاكتفاء» للكلاعي الأندلسي، «وتنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي، و «الروض الفائق» للحريفش المصري المكي، و «تنبيه الأنام في الصلاة على خير الأنام» لابن عظوم القيرواني، و «ذخيرة المحتاج» للمعطي الشرقي المغربي البجعدي.

وكان كثير من خطباء المساجد يوم الجمعة يحفظون عن ظهر قلب خطبة من خطب المناسبات ليخطبوا بها والغالب أن تكون من مجموعة خطب الرهوني أو أبي مدين الفاسي، أو ابن نباتة الميافارقيني نزيل حلب ودفينها. ومنهم من كان يحفظ خطباً ورثها عن أسلافه، وكان قليل من الخطباء ينشئ لنفسه خطبة خاصة، كما كان يفعل والدي رحمه الله.

كتب خاصة :

وهناك كتب خاصة بطوائف كانت تتدارسها فيما بينها في اجتماعاتها.

مثلما كان يفعل فقراء الطريقة الدرقاوية في اجتماعهم الأسبوعي عشية الجمعة، حيث يتلو عليهم بعض أهل العلم شيئاً من رسائل مؤسس الطريقة الشيخ العربي الدرقاوي دفين بني زروال بناحية فاس، في آداب الطريقة وذلك إلى جانب ما يتغنون به من أشعار ويتلونه من أذكار.

وكان فقراء زاوية الحراق دفين تطوان يتدارسون حكم الحراق. ورسائل الشيخ علي الجمل دفين فاس.

وكان التيجانيون يتدارسون منظومة «منية المريد»، في أداب طريقتهم، نظم أحمد ابن سيدي بابا المغربي الشنقيطي نزيل المدينة المنورة ودفينها بشرحها «بغية المستفيد» لمحمد العربي السائح الرباطي، أو «جواهر المعاني» لحرازم برادة الفاسي فيما تلقاه من التيجاني الجزائري دفين فاس.

وكان تلامذة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني يجتمعون في بيت من بيوت أحدهم، فيتدارسون شيئاً من مؤلفاته ورسائله مثل «خبيئة الكون» وغيرها.

وكانت جماعة تجتمع في جامع دريبت تونس بالرصيف فتدارس فيما بينها كتب الحاتمي كالفصوص والفتوحات المكية.

ومن ذلك الأحزاب والتصليات التي تلتزم مختلف الطوائف تلاوتها في أوقات معينة فرادى أو مجتمعين، كأحزاب الشاذلي المغربي دفين مصر، وحزب زروق الفاسي دفين ليبيا وحزب النووي الشامي، وسبحان الدائم للجزولي وصلاة الفاتح للبكري المصري، والجوهرة للتيجاني وتصلية ابن مشيش المغربي وحزب الشيخ عبدا لله الوزاني وحزب الناصري الدرعي، وأحزاب الشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني وغير ذلك.

قصة المولد النبوي:

وكان للمغاربة– في هذه الحقبة– اهتمام كبير جداً بالاحتفال بالمولد النبوي، فكانت تقام الحفلات العامة ليلة المولد أو ليلة سابع المولد في مختلف الزوايا والأضرحة وبعض مساجد الأحياء، وإلى جانب الأمداح النبوية التي يتغنى بها المنشدون، والدروس التي يلقيها بعض المدرسين، كانت تتلى قصة المولد النبوي «اسعاف الراغب الشائق» لابن جعفر الكتاني رحمه ا لله. كما كانت جل العائلات تحرص على أن تقيم في بيوتها حفلات عائلية أثناء شهر ربيع الأول تتلى فيها قصة المولد المذكورة، حتى كان العدد العديد من الطلبة، وأهل العلم يحفظونها عن ظهر قلب من كثرة ما يتلونها المرار العديدة كل يوم، حتى أن الوالد رحمه ا لله شرحها ودرسها في مسجد بوعقدة ومسجد الأقواس.

وكان بعضهم يتلو قصة المولد للبرزنجي المدني، ولكنه يخللها بتصلية ابن جعفر «عطر اللهم مجالسنا.. إلخ»، بل إننا عندما تأثرنا بحركة مجلة المنار المصرية بدأنا نتلو في حفلات المولد قصة المولد للشيخ رشيد رضا، وكنا نخلّلها بتصلية ابن جعفر رحمهما الله.

كتب المطالعة:

ويضاف إلى هذا ما كان لمطالعة بعض الكتب من أثر فعال في هذه الحقبة في تكوين الحركة السلفية والوطنية بالمغرب.

ككتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» لأبي إسحاق الأندلسي، وكتاب «الموافقات» له، وكتاب «التحصن والمنعة» للرهوني، وكتاب «مشتهى الخارف الجاني» للخضر الجاكاني الشنقيطي نزيل فاس ثم القاهرة و «التعليم والإرشاد» لبدر الدين النعساني الحلبي، وكتاب «أشهر مشاهير الإسلام» لرفيق العظم الدمشقي و«حماة الإسلام» لمصطفى نجيب المصري، و «مجموعة العروة الوثقى» لموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني و «نصيحة أهل الاسلام» للسيد محمد بن جعفر الكتاني، و «حقوق الشعب» لعبد الرحمن الرافعي المصري والجمعيات الوطنية له، و «أم القرى وطبائع الاستبداد» لعبد الرحمن الكواكبي الحلبي ثم المصري و «تلبيس إبليس» لابن الجوزي البغدادي، و «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» لنعمان الآلوسي البغدادي.

وكتب ابن تيمية، وابن القيم، الدمشقيين وخصوصاً إعلام الموقعين، وكتب ابن حزم الأندلسي، والمقبل اليمني الحجازي، والشوكاني اليمني، والآلوسي العراقي، وابن عبد الوهاب النجدي، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، والمنفلوطي، والخضري، والدكتور صدقي، وفريد وجدي، وطنطاوي جوهري، وكلهم مصريون، ورشيد رضا، وجرجي زيدان وهما سوريان نزلا مصر، ومصطفى الغلاييني، وعبد القادر المغربي وشكيب أرسلان، وخصوصاً «حاضر العالم الإسلامي»، وكلهم شاميون.

وقد أخبرني خطيب ثورة التحرير الريفية وداعيتها الفقيه محمد بن علي الريفي المعروف بأبي لحية

رحمه الله، عندما زرته في منفاه بمدينة أسفى سنة (١٩٣٤م): إن البطل محمد بن عبد الكريم الخطّابي قدس الله روحه كان يستعمل في الدعوة للثورة والتحريض عليها، كلاً من نصيحة أهل الإسلام لشيخهما السيد محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله ومجموعة العروة الوثقى.

المحاورات العلمية :

ومن مظاهر هذه الوحدة في الثقافة العربية، هذا الحوار الذي كان مستمراً بين علماء المغرب والعلماء غير المغاربة في المشرق والمغرب العربيين.

ومن أمثلة ذلك ما وقع في القرن العاشر الهجري بين أبي زيد التاجوري الطرابلسي المصري، وبين علماء فاس فقد وجه لهم كتابه «تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين» منددا فيه عليهم في إنحراف قبلة مساجدهم.

فتصدى للرد عليه من أهل فاس معاصراه عبد الوهاب الزقاق ومحمد السيتيني، ثم تصدى للرد عليهما منتصراً للتاجوري في القرن الثاني عشر الهجري بَلَديهما العربي ابن عبد السلام بن العربي بن أبي المحاسن الفاسي في كتابه «شفاء الغليل في القبلة لأمة صاحب التنزيل» «حاشية العلمي على شرح الرسالة الفتحية»، ومن ذلك ما وقع في القرن الحادي عشر الهجري بين الكوراني الشهرزورى نزيل المدينة المنورة وبين علماء فاس.

فقد ألف في تصحيح قصة الغرانيق الشهيرة رسالة «اللمعة السنية في تحقيق الإلقاء في الأمنية» فرد عليه أبو عبد الله بن أبي السعود الفاسي مبيناً بطلانها. فألف الكوراني «نبراس الايناس بأجوبة أهل فاس» فعاد الفاسي للرد عليه مرة أخرى.

كما ألف الكوراني في مسألة خلق الأفعال محتجاً لمذهب إمام الحرمين «رسالة الإلماع المحيط بتحقيق الكسب والتوسيط، بين طرفي الافراط والتفريط» التي كتبها برسم تلميذه

أبي سالم العياش، الذي أوردها في رحلته ((ماء الموائد))[1] فرد عليه أبو عبد الله الفاسي[2]، والمهدي بن أحمد الفاسي وسمّى هذا رده ((النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة، في مسألة خلق الأفعال الشهيرة))[3] ووجه المصريون أسئلة لفقيه فاس أبي عبد الله بن الحسن بناني فأجاب عنها بجزء مطبوع.

وعند مرور الشيخ أحمد بن الحاج الفاسي بطرابلس الغرب في طريقه إلى الحج سنة (١٠٧٨هـ) تلقى عنه بعض الطلبة بيتين لشيخه ميارة في النفيين إذا تكررا. فأطلع عليهما تونسي مر بطرابلس أتياً من مصر فانتقدهما فأرسل أحد أذكياء الطلبة الطرابلسيين انتقاداته للشيخ ابن الحاج فأذن هذا لتلميذه محمد بن محمد بن حمدون بناني فكتب ((الكوكب الساطع والعقد المنظوم في بيان النفيين باعتبار المنطوق والمفهوم)) ((الخزانة العامة)) (٢٠٠٨ د).

وأنكر الشيخ محمد عبده التوسل فألف مفتي فاس المهدي الوزاني في الرد عليه ((النصح الخالص)).

وأفتى محمد عبده بإباحة أكل ذبيحة أهل الكتاب، ولو خالفوا في ذبحها طريقة المسلمين، وقامت ضجة كبيرة في المشرق ضده من أجل ذلك فأفتى الوزّاني مفتي فاس بتأييد فتوى محمد عبده.

ونشرت جريدة ثمرات الفنون ببيروت كلاماً للشيخ محمد عبده حول الجبر والاختيار فكتب أحمد الرهوني التطواني ((تحرير المقال بمنّة الواحد المتعال في مسألة الكسب وخلق الأفعال)) ((الخزانة العامة)) (رقم ٢١٦١ د).

---

(١) (١/ ٣٦٠ و٤٢٩- ٤٤٣).

(٢) الخزانة العامة: رقم (ك ١١٥٤).

(٣) الخزانة العامة: رقم (ك ١٢٣٤).

ونشر بتونس متفقر من قسنطينة يقال له ابن مهنا رحلة الورتلاني، وعلق عليها تعاليق طعن فيها في المغاربة فألف الوزاني «السيف المسلول باليد اليمنى، المقطوع به رأس ابن مهنا»، فألف ابن مهنا «السيف المهند المسلول»، وقال إنه اختصره من رسالة شتم فيها الوزاني شتماً بليغاً! (ص ٧).

ومن ذلك المحاورات بين أحمد البكاي السوداني وبين اكنسوس المراكشي حول الطريقتين القادرية والتيجانية في مؤلفات عديدة بعضها مطبوع.

وقد عثرت في مكتبة القصر الملكي بالرباط ضمن مجموع على رسالة كتبها أحد علماء المغرب «لم يسم في الرسالة» إلى علماء مصر عندما احتلها الفرنسيون ينتقد عليهم رضاهم بالمقام تحت الحكم الأجنبي.

ولا يبعد أن تكون من إنشاء العلاّمة المغربي الكبير الشيخ الجيلاني السباعي، الذي نال في المغرب مقاماً عظيماً في العلم والدين ثم جاور بالحجاز، فلما وصل الخبر باحتلال الفرنسيين لمصر صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس وركبوا معه البحر إلى الصعيد المصري وحاربوا الفرنسيين في عدة مواقع كما عند الجبرتي[1] ثم اعتلّ ومرض ومات بقرب مرضه ودفن هناك بقرية يقال لها آحكاز كما عند التهامي بن محمد الأوبيري الحميري في «اتحاف الخل المواطي» (خط).

المطبوعات المغربية:

وإذا نحن رجعنا إلى قائمة المطبوعات المغربية، وهي تفوق الألفين، وأغلبيتها طبعت قبل

(١) عجائب الآثار: (٣/ ٤٤-٥٧).

الحماية، وجدناها تشتمل إلى جانب الأكثرية الساحقة من المؤلفات المغربية، على نسبة لا بأس بها من الأقطار العربية الأخرى.

وكذلك ما نشره المغاربة من كتب خارج المغرب، كمصر، وسوريا، ولبنان، والحجاز، وتونس.

الموسيقى والغناء:

جاءت الموسيقى العربية من الشرق الإسلامي إلى الغرب الإسلامي، على يد زرياب البغدادي، فاعتنى بها عرب المغرب وحافظوا عليها وطبعوها بطابعهم الخاص، حتى غدت بالمغرب الأقصى موسيقى مغربية لها أصول أندلسية عراقية.

فقد أضاف المغاربة إلى الميازين الأربعة الأندلسية ميزان الدرج الذي لا وجود له في المألوف بتونس، ولا في الغرناطي الجزائري، كما أوضح ذلك الأستاذ محمد الفاسي راجع «مجلة تطوان» (٧/ ٩، ١، ١٢) سنة (١٩٦٢م) وذكر إبراهيم التادلي أن طبع الاستهلال يقال إن أهل فاس استنبطوه وذكر الأستاذ الفاسي أن الذي استنبطه منهم هو المسوسيقي علال البطل. بينما أضاعها عرب المشرق فلم يبق لها أثر عندهم ومن أسماء نغماتها بالمغرب الحجاز والمشرقي. وأصبهان، وعراق العجم.

وإذا نحن رجعنا إلى الأشعار التي يتغنى بها المغنون في المغرب، سواء منهم الموسيقيون (الآليون) أو المنشدون (المسمعون) وجدنا الفصيح منها مزيجاً من الشعر المغربي والأندلسي والمشرقي. كأشعار كعب بن زهير. والبوصيري، وابن وفاء، والرفاعي، والبوراعي، والبكري، والحلبي دفين فاس، وابن الفارض، والششتري، والحراق، والبغدادي، وعياض، واليوسي، وابن زيدون وابن الخطيب، وابن سهل، وأبي مدين، وغيرهم.

وأما الأزجال منها والبراول التي باللهجة المغربية الدارجة فإنها مغربية خالصة.

ويوجد إلى جانب هؤلاء المغنين بالشعر العربي الفصيح الأشياخ المغنون بالشعر العربي الدارج (الملحون) وهو مغربي صرف.

الأمثال الشعبية والشعر الملحون:

ونجد في الأمثال الشعبية المتعلقة بالكتب نفس الظاهرة التي أشرنا إليها مثل قولهم:

مشى يقرا ابن السبكي، وخلا الجرومية تبكي!

اللي حب يقرا بالنيا، يقرا سيدي خليل والألفيا. سيدي خليل والرسالا، ما خلوا حتى مسالا يريدون رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

بع الدار، واشري لذكار، «أذكار النووي» الغزالي. ما يخلي قلب سالي.

ومن أمثلة ما ورد في الشعر الشعبي الملحون، ما جاء في قصيدة (الحراز) لمحمد الأمغاري، حيث يأتي البطل- أخيراً- إلى الحراز في صورة (فقيه) قارئ للكتب المختلفة مثل «السنوسية» و «الجرومية» و «الألفية» و «الموطأ» و «البخاري» و «مسند أحمد»، وبذلك خدع البطل الحراز «القاري ببيان لحيال لكن انداز!» كما يقول الشاعر في (الحرية) اللازمة.

الكتاب المغربي خارج المغرب

وكما سد الكتاب المغربي الحاجة المحلية في موضوعه، متعاوناً على ذلك مع الكتاب العربي الوارد من خارج المغرب، فإن قسماً مهماً من الكتاب المغربي تجاوز النطاق المحلي وانتشر خارج المغرب، ليسد حاجة ماسة في المراكز العلمية الأخرى، وبذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على أتم الوجوه.

ومن أمثلة هذا القسم:

مقدمة إبن آجروم الفاسي.

وكراسة الجزولي المراكشي في النحو، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك، و «الشفا» للقاضي عياض السبتي دفين مراكش، وبقية مؤلفاته، «كالمدارك»، و«والمشارق»، و«التنبيهات»، و«الإكمال»، و«الإلماع»، و«بغية الرائد»، و«الفهرسة».

و«أنوار البروق في تعقب مسائل الفروق» لابن الشاط السبتي.

و«مناهج التحصيل من نتائج لطائف التأويل» شرح المدونة لأبي الحسن علي بن سعيد الرجراجي المعروف بابن تامسري (ق ٧).

و«بيان الوهم والإيهام، الواقعين في كتاب الأحكام»، لابن القطان الفاسي دفين سجلماسة.

و «نزهة المشتاق»، للشريف الإدريسي السبتي.

و «رحلة ابن بطوطة» الطنجي.

و «القرطاس» لابن أبي زرع الفاسي.

و «وصف أفريقيا» للحسن الوزان الفاسي المعروف عند الأوروبيين بليون الأفريقي .

و «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» لأبي على الحسن المراكشي.

وكتاب «التيسير، في المداواة والتدبير» لعبد الملك بن زهر الأشبيلي المراكشي.

و «المعجب في أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي نزيل بغداد.

و «رحلة ابن رشيد السبتي» دفين فاس (ملء العيبة).

و «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» لابن عبد الملك المراكشي.

و «حاشية ابن الطيب الشرقي الفاسي» نزيل المدينة المنورة ودفينها على القاموس المحيط للفيروزآبادي.

و كتاب «الوشاح، وتثقيف الرماح، في رد توهيم المجد الصحاح»، لعبد الرحمن بن عبد العزيز التادلي المدني.

و «ديوان صفوة الأدب». لأبي العباس الجراوي التادلي الفاسي.

وأرجوزة ابن الياسمين الفاسي في الجبر و«دلائل الخيرات»، لابن سليمان الجزولي دفين مراكش.

وكتاب «المدخل» لابن الحاج الفاسي دفين مصر.

و «مورد الظمآن في رسم المصحف وضبطه» للخراز الفاسي وشرح ابن عاشر عليه.

و «الدرر اللوامع في قراءة نافع» لابن بري الرباطي التازي.

و «رائية الشريشي» السلوي المراكشي ثم المصري.

وشرح ابن عباد الرندي ثم الفاسي على حكم ابن عطاء الله السكندري.

وأحزاب أبي الحسن الشاذلي المغربي دفين مصر.

ومؤلفات ابن البنا المراكشي، وخصوصاً «تلخيص أعمال الحساب»، و «منهاج الطالب في تعديل الكواكب».

ومؤلفات زروق الفاسي دفين ليبيا وخصوصاً «شروح الحكم».

ومؤلفات علي بن ميمون الغماري دفين لبنان، مثل «بيان غربة الإسلام على يد صنفي المتفقهة والمتفقرة في مصر والشام»، وغيرهما من بلاد الأعجام.

ومؤلفات محمد بن سليمان الروداني نزيل المدينة المنورة ودفين دمشق الشام وقد طبع

بعضها في الهند.

ومؤلفات محمد بن إدريس الميسوري دفين عسير باليمن.

و «نظم المرشد المعين» لابن عاشر الفاسي وشرحه لميارة. وشرح التاودي ابن سودة الفاسي على تحفة ابن عاصم الأندلسي.

وحاشية بناني الفاسي على شرح الزرقاني على مختصر خليل.

وحاشية الرهوني على كل من المختصر وشرح الزرقاني وحاشية بناني.

و «الإبريز» لأحمد بن مبارك السجلماسي.

و «جواهر المعاني» لحرازم برادة الفاسي.

و «الوسيط في أدباء شنجيط» لأحمد الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة.

ومؤلفات محمد محمود الشنقيطي نزيل القاهرة.

و «الاستقصاء» للناصري السلوي.

و «سلوة الأنفاس» لابن جعفر الكتاني، و «الرسالة المستطرفة» له.

و «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان العلوي المكناسي. و «الفكر السامي» للحجوي الفاسي نزيل الرباط. و «التراتيب الإدارية» لعبد الحي الكتاني، و «فهرس الفهارس» له.

و «النبوغ المغربي» لعبد الله جنون الفاسي الطنجي.

و «النقد الذاتي» لعلال الفاسي نزيل طنجة والرباط، و «تاريخ الحركات الاستقلالية» له.

و «دليل مؤرخ المغرب» لعبد السلام ابن سودة الفاسي.

وغير ذلك كثير

وذكر الشيخ عبد المجيد المنالي الزيادي الفاسي في ((إفادة المرتاد، في التعريف بابن عباد)) أن ((رسائل ابن عباد)) الرندي ثم الفاسي لما بلغت لأبي عبد الله البلالي المصري صاحب ((اختصار الإحياء)) وغيره، جعلها على رأسه وجعل يقول: أنا عبد لابن عباد! ((الخزانة العامة)): رقم (د ٤٧١)، ونسخ أخرى.

وذكر اليفرني في ((الصفوة))[١]: إن كتاب ((نتائج التحصيل، في شرح التسهيل)) لمحمد المرابط الدلائي الفاسي (ق II) لما بلغ القاهرة تنافس فيه الطلبة حتى بيع بنحو عشرين ديناراً.

وإذا كانت رحلة بعض أصحاب هذه المؤلفات لخارج المغرب أو طبع بعضها في الشرق العربي مما ساعد على التعرف عليها في الخارج، فإن بعضاً آخر منهم لم يخرج من المغرب، ومع ذلك كان لمؤلفاتهم من الذيوع والانتشار خارج المغرب ما تزداد به الحقيقة التي أشرنا إليها تجلياً ووضوحاً.

تقسيم الكتاب المغربي:

وهكذا نستطيع أن نقسم الكتاب المغربي إلى قسمين:

١ - القسم الأول الكتاب الذي ألفه المغاربة في المغرب أو خارجه، سواء بقيت نسخة في المغرب أو لم يبق إلا خارجه.

ويلحق بهذا القسم الكتاب الذي اقترح تأليفه ملوك وأمراء ورؤساء مغاربة على مؤلفين غير مغاربة، سواء نزحوا عن بلادهم إلى المغرب أو لم يصلوا إلى المغرب بالمرة.

٢ - والقسم الثاني الكتاب الذي انتقل إلى المغرب من خارج المغرب، فاحتفظت به

(١) كتاب الصفوة: (ص ١٨٠).

المكتبة المغربية وتبنته، واتخذه المغاربة كتاب دراسة، ومراجعة، وخدموه بالشرح والتعليق واعتمدوه في الفتوى والقضاء والتوجيه والإرشاد والوعظ، وتولوا طبعه داخل المغرب وخارجه وكذلك ما انفردت به المكتبة المغربية، ولم يبق له أثر في وطنه الأصلي.

وأمثلة هذا النوع تفوق الحصر وتستعصي على الاستقصاء، ومنها:

«الفية ابن مالك الأندلسي» دفين دمشق.

و «أوضح المسالك» لابن هشام المصري.

و «أم البراهين» للسنوسي التلمساني.

ورسالة ابن زيد القيرواني.

ومختصر خليل المصري.

وشرحاه: للخرشي، والزرقاني، المصريين.

وشرح الحطاب المكي.

وتحفة ابن عاصم الغرناطي.

و «نظم السلم» للأخضري البسكري.

و «جمع الجوامع» لابن السبكي.

و «شرحه للمحلي» وكلاهما مصري.

و «تلخيص القزويني» الشامي المصري مفتاح العلوم للسكاكي الخوارزمي، وشرحاه لسعد الدين التفتازاني (من خراسان): المطول والمختصر.

و «كشف الأسرار في الحساب» للقلصادي الأندلسي دفين تونس.

و «الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية» لسبط المارديني المصري.

و «حرز الأماني» للشاطبي الأندلسي دفين مصر.

و«حكم» لابن عطاء الله السكندري.

و «بردة المديح» للبوصيري المصري، وهمزيته.

و «الأربعون» للنووي.

و «صحيح البخاري» دفين سمرقند، وشرحاه: فتح الباري للعسقلاني المصري و«إرشاد الساري» للقسطلاني المصري.

و «صحيح مسلم» النيسابوري، وشرحاه: للنووي الشامي. والآبي التونسي.

و «شمائل الترمذي» الخراساني.

و«موطأ» مالك المدني، وشرح الزرقاني المصري عليها.

ومقامات الحريري البصري.

و «الكشاف» للزمخشري.

و«تفسير» ابن عطية الأندلسي.

و«أحكام» عبد الحق الإشبيلي.

و «الجامع الكبير» للسيوطي.

و «إحياء علوم الدين» للغزالي وشرحه للشيخ مرتضى الزبيدي المصري.

وكتاب سيبويه.

وديوان المتنبي.

و «التسهيل» لابن مالك.

و «تحرير أصول الهندسة» لاوقليدس تأليف النصير الطوسي.

و«تاريخ» ابن خلدون.

ومختصر ابن الحاجب الفقهي.

وشامل بهرام.

و «القاموس المحيط» للفيروزآبادي.

وتهذيب البرادعي لمدونة سحنون.

وكتاب «التلقين» للقاضي عبد الوهاب.

وقد كانت الكتب تصل إلى المغرب بواسطة الرحالين من أهل العلم. وخصوصاً الحجاج، وبواسطة مبعوثين خصوصين يبعثهم الملوك إلى إسبانيا ومصر وأسطنبول لاستيراد الكتب بصفة خاصة، وتتضمن كتب الرحلات والرسائل الرسمية أخباراً مستفيضة في هذا الموضوع، كما تتضمن كتب التراجم أسماء من أدخلوا كتباً معينة إلى المغرب لأول مرة.

كمدونة سحنون[١] والنوادر، والمختصر لابن أبي زيد القيرواني[٢] ومختصر ابن الحاجب الفرعي[٣] وشرح المرادي على ألفية ابن مالك[٤] ومختصر خليل[٥] وشامل بهرام، وشرحه على المختصر، وحواشي التافتزاني على العضد وابن هلال على ابن الحاجب[٦] وشرح الخرشي على المختصر[٧].

---

(١) محمد مخلوف: «شجرة النور الزكية»: (ص ١٠٣ رقم ٢٦٣).

(٢) ابن فرحون: «الديباج»: (ص ١٦٣).

(٣) أحمد بابا: «نيل الابتهاج»: (ص ١٦٨).

(٤) ابن القاضي «درة الحجال»: (١/ ٦٨٨).

(٥) نيل الانتهاج: (٢٩٢)، درة الحجال: (١/ ٢٩٣).

(٦) نيل الانتهاج: (٣٠٦).

(٧) المهدي الوزاني: «السيف المسلول باليد اليمنى»: (ص ٨) طبع حجري بفاس.

للكتاب المغربي طابعه الخاص

الملاحظة الثانية التي تلفت نظر الباحث في الكتاب المغربي، هي أنه- ضمن وحدة الكتاب العربي والثقافة العربية- له شخصيته المتميزة وطابعه الخاص.

فهو- وقد فتح صدره للاستفادة من الكتاب العربي الوارد من مختلف الأقطار- استطاع أن يتفوق حيناً. وأن يجمع بين محاسن تجربتين أو تجارب حيناً آخر، وأن يقوم بدور الحكم أحياناً أخرى.

ولم يكن الإيمان العميق الراسخ للمؤلف المغربي بوحدة الثقافة العربية بين شرق العربية وغربها، إيماناً سلبياً يأخذ ولا يعطي، ويتقبل كل ما يرد من خارج المغرب تقبل التقديس والتسليم من غير بحث ولا تمحيص، بل كان على العكس من ذلك إيماناً إيجابياً يستفيد إلى أقصى حد ممكن من الكتاب الوارد على المغرب مع اخضاعه للنقد والتمحيص والتهذيب والترتيب.

فهو يختصر ما هو مطول، ويهذب ويرتب ماهو في حاجة إلى تهذيب وترتيب ويذيل ما يحتاج إلى تذييل، وينظم المنثور ليسهل حفظه، ويشرح المتن ليسهل فهمه، ويحشي على الشرح، ويتعقب ما يتوقف على تعقيب.

ويجمع بين كتابين أو أكثر في كتاب واحد إذا كان في كل واحد منهما ما ليس في الآخر.

فقد نقل المقري في «أزهار الرياض» عن تعليق لبعض المتأخرين:

«إن صناعة التأليف انتهت في علماء المغرب على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ

العلماء في وقته ابن البنا الأزدي المراكشي في جميع تصانيفه))[1].

((وإن القدماء كان لهم اصطلاحان في تدريس المدونة: اصطلاح عراقي واصطلاح قروي- وبعدما أوضحهما قال: وقد سلك القاضي عياض في (تنبيهاته) مسلكاً جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين))[2].

ونقل الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن شيخه علامة فاس ومفتيها أبي العباس القباب أنه كان يقول: إن ابن بشير وابن شاش وابن الحاجب أفسدوا الفقه ويأمر أصحابه بالتحامي عنهم.

وقال أحمد بابا السوداني في ((نيل الابتهاج)): ((ويذكر أنه لما حج اجتمع في تونس بابن عرفة فأوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهي، وقد شرع في تأليفه فقال له القباب: ما صنعت شيئاً، لأنه لا يفهمه المبتدي، ولا يحتاج إليه المنتهي! ويقال: إن كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة في أواخر المختصر ولين الاختصار))[3].

وكان الفكر المغربي إذ ذاك لا زال لم يتسمم بوباء الاختصار المخل الوارد من الشرق.

ولا يؤثر فيما أردناه من ايراد هذه القصة ما ألفاه عبد الواحد الونشريشي بخط والده أبي العباس، ونقله المقري في ((أزهار الرياض)) من أنها لا رأس لها ولا ذنب قائلاً عن القباب: وحاشاه من ذلك!))[4].

فقد قال الونشريشي: ((إن بعض القاصرين من طلبة فاس يقولون عن مختصر ابن عرفة الفقهي: ما يقول شيئاً! وإن ملوك المغرب حبسوا بخزانتي القرويين والأندلسيين من مختصر

---

(١) (٣/ ٢٣).
(٢) (٣/ ٢١- ٢٢).
(٣) (ص ٧٣).
(٤) (٣/ ٣٥).

ابن عرفة نسخاً عديدة، ثم لا يعرج عليها للمطالعة أحد من طلبة الحضرة (فاس) شتاءً ولا صيفاً))[1].

ومن الواضح أن انتقاد القباب في القصة منصب على ما في كلام ابن عرفة من تعقيد لا ينازع فيه أحد، حتى قيل: إن ابن عرفة نفسه لم يفهم بعض عباراته. مثل تعريف للإجارة، فقد ذكر الرصاع التونسي في ((شرح حدود ابن عرفة)): أنه وقف بخط بعض أشياخه من تلامذة ابن عرفة: أنه لما قرئ ذلك اللفظ بمجلس ابن عرفة أشكل فهمه عليه وعلى أهل مجلسه، فافترق المجلس من غير جواب، فلما كان من الغد ذكر الشيخ أنه اهتم غاية الاهتمام، وأنه فكر في ذلك جالساً ومضطجعاً فلم يذكر من ذلك شيئاً قال: فنويت أن أصلي ركعتين وأرغب إليه تعالى في تيسير فهمه، ثم فتح الله علي بفهم قولي: بعضه يتبعض بتبعضها (ص ٣٩٣) طبع تونس، ونقل عن الشيخ عيسى أن ابن عرفة في آخر عمره كان يصعب عليه فهم كلامه (ص ٣٩٤) وذكر في أول شرح الحدود عن كتب ابن عرفة: ((إن المبرز من فقهاء الزمان من يفك رموزها، ويفهم اشاراتها، ويتفاخرون بذلك))[2].

وقد سمى ابن غازي كتابه ((أتحاف ذوي الذكاء والمعرفة، بتكميل تقييد أبي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة)).

وقال الفقيه المصري المعاصر محمد سلام مدكور في رسالته ((المقاصة في الفقه الإسلامي)) عن تعريف ابن عرفة للمقاصة: ((وهذا التعريف المعقد يشبه أن يكون نوعاً من الرطانة، ولا يكاد يفهم بدون إرشاد وايضاح!))[3].

---

(١) نفس المصدر.

(٢) (ص ٣) طبع تونس.

(٣) (ص ٩).

أما من الناحية الفقهية فإمامة ابن عرفة ومكانته الفقهية ليست عند المغاربة محل نقاش أو خلاف.

ولكنهم شنعوا عليه تحامله على شيخنا ابن عبد السلام الهواري التونسي: قال الإمام المسناري الفاسي في كتابه «صرف الهمة، إلى تحقيق معنى الذمة» بعدما أجاب عن اعتراض لابن عرفة على تعريف لشيخه ابن عبد السلام ما نصه: «وهذا ما لا يكاد يخفى على من دون الشيخ ابن عرفة من الأصاغر، فضلاً عمن هو مثله من الأئمة الأكابر.

غير أن ولوعه- رحمه الله تعالى- بمناقشة شيخه المذكور، في النقير والقطمير، وشغفه بمضايقته والانتقاد عليه في الجليل والحقير، كما هو معلوم من حاله لمطالع كلامه، ومتأمل مقاله، غطى عليه سنا إشراقه، وأمر لديه حلو مذاقه!

حبك الشيء يعمي ويصم

ما ذاك الا لمضمرات يعلمها العالم الرقيب!

وفي أجوبة الإمام أبي عبد الله القوري عن السبعة والعشرين سؤالاً الواردة عليه من تلمسان من صاحب المعيار: أن الناس لم يسلموا لابن عرفة من اعتراضاته على ابن عبد السلام إلا القليل.

وما أحوجهما إلى وضع كتاب إنصاف بينهما، كما وضع بين الزمخشري وابن المنير»[1].

ومن ذلك ما ورد في كتاب «بيان غربة الاسلام، على يد صنفي المتفقهة والمتفقرة في مصر والشام وغيرهما من بلاد الاعجام» لعلي بن ميمون الغماري نزيل تركيا والشام

---

(١) رقم (١٩٤ د) بالخزانة العامة بالرباط.

ودفين لبنان، من كلام قاس جداً عن مؤلفي بلاد الشام في عهده، (٩١٠هـ- ١٥٠٤م) اتهمهم فيه بأنهم لا معرفة لهم بقواعد التأليف أصلاً، ولا بالصالح والفاسد منه، بل يعمدون إلى مطالعة الكتب، فينقلون منها، على مقتضى فهمهم، ويقيدون ذلك، ولا يعرفون حقيقته واصطلاحه، ولا ما ينتج عن ذلك! اضربنا عن نقله بنصه لطوله.

وقال الإمام المسناوي في «صرف الهمة» عن شرح الآبي التونسي لصحيح مسلم: أنه شهير بعدم التحرير.

وقال عن شرح الرصاع التونسي لحدود ابن عرفة: وكم له في شرح الحدود من مخلول الكلام وساقطه، كما لا يخفى على ناقده ومخالطه. والله يعلم أني لم أقل هذا هضماً، بل لإفادة الطالب علماً.

وما علي إذا ما قلت معتقدي ... دع الجهول يظن الحق عدوانا

ومن الفكاهات التي يتندر بها في هذا المعنى، أن فقيهاً مغربياً- لعله الشيخ بناني دخل القاهرة ودرس بالأزهر الشريف فوقع عليه إقبال كبير، أثار حسد شخص قليل الحياء، حسب التعبير المغربي فسأل الشيخ: لماذا لم يؤلف المغاربة كتباً دراسية خاصة بهم، وبقوا عالة على مؤلفات المشارقة فاستفز الغضب الشيخ المغربي وأجاب: شغلهم إصلاح أخطائكم عن التفرغ، لتأليف كتب خاصة بهم!

والواقع أن ما قلناه عن وحدة الكتاب العربي، وتكامله جعلت كثيراً من الكتب غير المغربية لا تتم الاستفادة منها إلا بضميمة الكتاب المغربي إليها.

فهذا مثلاً- كتاب «الاحكام» في الحديث، لعبد الحق ابن الخراط الأشبيلي دفين بجاية (٥٨١هـ ١١٨٥م) الذي بناه على «كتاب المنتخب المنتقى» لصاحبه ومفيده الحافظ أحمد

بن عبد الملك اللبلي الظاهري الشهيد (ت٥٤٩هـ- ١١٥٥م)[١].

استدرك عليه معاصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الفاسي المعروف بابن الصيقل (ت ٦٠٨ هـ- ١٢١٢م) أحاديث كثيرة في أكثر الكتب، رأى أن عبد الحق أغفلها، وإنها أولى بالذكر مما ذكره عبد الحق في ((الاحكام)).

قال ابن عبد الملك المراكشي في ((الذيل والتكملة)): ((دل ذلك على حسن نظره وجودة اختياره))[٢].

كما تصدى له الحافظ أبو الحسن ابن القطان علي بن محمد الكتامي الفاسي دفين سجلماسة (ت٦٢٨هـ- ١٢٣٢م) في كتابه الحفيل ((بيان الوهم والايهام، الواقعين في كتاب الاحكام)) فانتقد عليه أحاديث أوردها ولم يجد لها ابن القطان ذكراً، أو عزاها إلى مواضيع ليست فيها، أو ليست كما ذكر، وأحاديث أوردها على أنها متصلة وهي منقطعة- وذكر ابن القطان، لا نقطاعها عدة مدارك- وأحاديث أوردها على أنها موقوفة، وهي في المواضع التي نقلها منها مرفوعة! وأحاديث أغفل نسبتها إلى المواضع التي أخرجها منها. وأحاديث أوردها على أنها مرفوعة وهي موقوفة أو مشكوك في رفعها، وأحاديث أبعد النجعة في ايرادها ومتناولها أقرب، وأشياء متفرقة تغيرت في نقله- أو بعده- عما هي عليه، ورواة تغيرت أنسابهم وأسماؤهم في نقله عما هي عليه.

قال ابن الزبير في ((صلة الصلة)) عن ((بيان الوهم والايهام)): ((وهو من أجل التأليف في بابه وان كان لا يخلو من بعض تعسف وتحامل!))[٣].

وذكر ابن عبد الملك المراكشي في ((الذين والتكملة)) أن قاضي فاس الحافظ ابن المواق:

---

(١) ابن الابار: ((التكملة)): (١/ ١٦٢).

(٢) جزء الغرباء: (٩٧- ٩٨).

(٣) (ص ١٣٢) طبع الرباط.

أبا عبدالله محمد بن يحيى (ت ٦٤٢هـ- ١٢٤٤م) له تعقيب على كتاب شيخه أبي الحسن ابن القطان: ((بيان الوهم والايهام)) ظهر فيه إدراكه ونبله، ومعرفته بصناعة الحديث واستقلاله بعلومه وإشرافه على علله وأطرافه، وتيقظه، وبراعة نقده واستدراكه.

قال ابن عبد الملك: ((وقد عنيت بـ((الجمع بين هذين الكتابين)) مضافين إلى سائر أحاديث ((الاحكام)) وعلى ترتيبها. ((وتكميل ما نقص منها)) فصار كتابي هذا من أنفع المصنفات وأغزرها فائدة، حتى لو قلت: أنه لم يؤلف في بابه مثله لن أبعد))[1].

وسمى الحافظ ابن رشيد الفهري السبتي دفين فاس (ت ٧٢١هـ- ١٣٢١- ١٣٢٢م) في رحلته الحفيلة ((ملىء العيبة)) كتاب ابن المواق: ((كتاب المأخذ الحمال، عن مأخذ الإغفال في شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم والايهام من الإخلال أو الإغفال، وما انضاف إليه من تتميم وإكمال)).

وقال: ((إن المؤلف تولى إخراج بعضه من المبيضة ثم اخترمته المنية، ولم يبلغ من تكميله الامنية، قال ابن رشيد: فتوليت تكميل تخريجه، مع زيادة تتمات وكتب ما تركه المؤلف بياضاً))[2].

ولكنا مع الأسف لم يصلنا، لا كتاب ابن الصيقل، ولا كتاب ابن المواق، ولا كتاب ابن عبد الملك، ولا كتاب ابن رشيد! وتلك صورة من نكبات المكتبة المغربية.

وهذا كتاب ((جمع الجوامع)) في الحديث للسيوطي المعروف ((بالجامع الكبير))، الذي قصد مؤلفه به استيعاب الأحاديث النبوية، كما قال في خطبته، ذكر الشيخ مرتضى الزبيدي في معجم شيوخه: ((إن مجيزه الحافظ أبا العلاء، إدريس العراقي الفاسي (ت

---

(١) جزء الغرباء (١٤٧- ١٤٨).

(٢) العيبة الجزء (٥) الورقة (٩) مخطوطة الأسكوريال ونقله أبو سالم العياشي في ((رحلته)): (٢/ ٢٤٨-٢٤٩).

١١٨٣ أو ١١٨٤هـ) (١٧٦٩- ١٧٧١م) لما قرأ الجامع الكبير استدرك عليه نحو عشرة آلاف حديث كان يقيدها في طرة نسخته، بحيث لو نقل ذلك في كتاب جاء مجلداً))[١].

وهذا كتاب ((أنوار البروق في أنواء الفروق)) لشهاب الدين القرافي الصنهاجي المصري، الذي يعتبر أهم كتاب وصل إلينا في القواعد والفروق في المذهب المالكي والذي قال عنه ابن فرحون في الديباج: ((إنه لم يسبق إلى مثله، ولا أتى أحد بعده بشبهه))[٢].

تصدى له أبو القاسم ابن الشاط السبتي في كتاب ((ادرار الشروق على أنواء الفروق)) قائلاً عن القرافي: ((إنه ما استكمل التصويب والتنقيب، ولا استعمل التهذيب والترتيب، فوضع ابن الشاط كتابه مصححاً لما اشتمل عليه كتاب القرافي من الصواب ومنقحاً لما عدل به عن صوبه))[٣].

وقد تلقى المالكية تعقبات ابن الشاط بالقبول، حتى قالوا: ((عليك بفروق القرافي ولا تقبل منها إلا ما قبله ابن الشاط! كما عند الشيخ الأمير المصري المغربي الأصل في حواشيه ((ضوء الشموع)) على شرحه لكتابه ((المجموع)) في الفقه المالكي))[٤].

وقال أبو سالم العياشي في ((رحلته)): ((إن ذلك من المستفيض عند المتأخرين))[٥].

وهذا مختصر خليل المصري الذي فتن المغاربة فتنة شديدة، حتى إنهم جعلوه أحزاباً كما حزب المسلمون كتاب الله، وجعلوا المحراب جامع القرويين محلاً يتحلق حوله من يستظهرون مختصر خليل، فيتلون منه قدراً معيناً كل يوم، كما يفعل من يستظهرون

---

(١) فهرس الفهارس: (٢/ ٢٠١).

(٢) (ص ٦٤).

(٣) (ص ٣- ٤).

(٤) (١/ ٣٧٧).

(٥) (٢/ ٢٧٠).

«كتاب الله»! بل إن الراتب الشهري لمن يتلون حزب المختصر كان يفوق راتب من يتلون حزب القرآن عشرين ضعفاً!

ولكنهم لا حظوا عليه: أنه لفرط الايجاز. كاد أن يعد من جملة الألغاز[1] فوضعوا عليه عشرات الشروح والحواشي والتعاليق، وناهيك بالشرح الحفيل على معاملاته للفقيه الكبير أبي علي ابن رحال، في حوالي عشرين مجلداً، أما العبادات فقد اكتفى عن شرحها الحطاب المكي.

وترجم «المختصر» إلى الشلحة محمد بن علي الهوزالي وشرح الترجمة بالشلحة أيضاً لحسن بن مبارك التمدزتي البوعقيلي.

ونظم «المختصر» بالعربية أبو القاسم الفيجيجي في «نظم اللآلئ الحسان»[2].

وكذلك اعتنى المغاربة باستيراد ما وضع على «المختصر» من شروح وحواش خارج المغرب وتعقبوها هي الأخرى.

فابن غازي أهتم في كتابه «شفاء الغليل، بحل مقفل خليل» ببيان أغلاط بهرام المصري في شرحه على المختصر.

وابن عاشر بالغ في «حاشيته على الشرح الصغير للتتائي المصري» في الإنكار عليه.

وقال أبو العباس الهلالي في «شرحه لخطبة المختصر»: «ومن الكتب التي لا يعتمد على ما انفردت بها شرح العلامة الشهير... الشيخ على الآجهوري على المختصر، كما ذكره تلميذه العلامة النقاد أبو سالم... عبد الله العياشي في تأليفه «القول المحكم، في عقود الاصم والابكم» وأشار إلى ذلك في (رحلته) »[3].

---

(١) محمد الطالب ابن الحاج «الازهار الطيبة النشر في ذكر المبادئ العشر»: (ص ١٩٧).

(٢) محمد المنوني «مكتبة الزاوية الحمزاوية»: (ص ٣١).

(٣) (٢/ ٣٧٣) نقلاً عن شيخه أبي بكر السكتاني المراكشي.

ومن مارس الشرح المذكور، وقف على صحة ما قاله تلميذه المذكور...

ثم قال الهلالي: ((وما قيل فيه يقال في شرح تلامذته واتباعه من المشارقة كالشيخ عبد الباقي الزرقاني، والشيخ إبراهيم الشبرخيتي والشيخ محمد الخرشي؛ لأنهم يقلدونه غالباً.

هذا مع أن الشيخ علياً رحمه الله حرر كثيراً من المسائل أتم التحرير، وقررها أوضح تقرير، وحصل كثيراً من النقول أحسن تحصيل، وفصل مجملات أبين تفصيل... فشرحه كثير الفوائد لمن ميز حصباءه من دره، ولا يطويه على غره!

وقد سئلت بالجامع الأزهر من القاهرة عن شرح تلميذه الشيخ عبد الباقي الزرقاني فقيل لي: ما رأيك فيه؟ فقلت لهم: لا ينبغي للطالب أن يترك مطالعته لكثرة فوائده ولا أن يقلده في كل مايقول أو ينقل لكثرة الغلط في مقاصده))[1] انتهى كلام الهلالي مختصراً.

وقد وضع كل من أبي علي ابن رحال، والسلطان المولى سليمان، والفقيه ابن عبد الرحمن والمهدي ابن سودة، وبدر الدين الحمومي والمهدي ابن الحاج حواشي على شرح الخرشي.

كما وضع كل من الشيخين التاودي ابن سودة ومحمد بن الحسن بناني حواشي على شرح الزرقاني، الذي قال عنه: ((إنه كثيراً ما ينزل النقل في غير محله، ويلحق الفرع بغير أصله))[2].

ثم وضع الشيخ الرهوني حاشيته على كل من المختصر وشرح الزرقاني وحاشية بناني.

قال الشيخ الطالب ابن الحاج في كتاب ((الازهار الطيبة النشر)): ((ولعمري أن كلاً من هذه الحواشي الثلاثة قد أتى صاحبها فيها من التحريرات بالعجب العجاب، وذلك مما مالم

---

(١) (ص ٧) الملزمة (١٠) طبع حجر بفاس.

(٢) هامش شرح الزرقاني (١/ ٢).

يسهل للأكابر من المسائل الصعاب))[1].

وهكذا صار كلام بناني والرهوني هو القول الفصل في تحرير المذهب المالكي بحيث إذا نص خليل على حكم فقهي في مختصره الذي قال: إنه مبين لما به الفتوى، ووافقه عليه الزرقاني تبعاً لشيخه الآجهوري، فإنه لا يكون فقهاً مسلماً إلا إذا أقره بناني والرهوني ولو بالسكوت، أما إذا اعترضاه فلا عبرة بكلام خليل والزرقاني!

ولا عجب في ذلك، فقد عني المغاربة بالدراسات الفقهيسة القانونية عناية فائقة، قرون عديدة، إذ كانت فاس تمثل المركز السادس من مراكز الدراسات المالكية ويشمل نفوذها الثقافي المغربين الأوسط والأقصى، كما عند مؤرخ المذهب المالكي محمد مخلوف التونسي في ((شجرة النور الزكية))[2]، ولا يخفى أنه يقصد بالمغرب الأقصى ما يشمل الأقاليم السودانية.

وكلمة فقيه- عند المغاربة- تطلق على من يعرف القراءة والكتابة، وعلى المعلم، والمدرس، والموثق، وإمام الصلاة، والمحتسب، والمفتي، والقاضي، والسفير، والوزير، ولا يفوقها من ألفاظ التعظيم والإحترام عندهم إلا كلمة شيخ التي تقال لشيخ الجماعة ولشيخ التربية الصوفية، وكلمة شريف التي تطلق على من كان من آل البيت النبوي.

ولعل الميدان الفقهي القانوني باقسامه المختلفة، وفروعه المتعددة، هو أهم ميدان تفوق فيه الكتاب المغربي تفوقاً كبيراً لا من ناحية كثرة المؤلفات التي تفوق الحصر فقط، ولكن من ناحية الكيف أيضاً.

فقد عرف الكتاب الفقهي المغربي- في الغالب- بالتحري في النقل، والتعمق في

---

(١) (ص ١٨٠) طبع حجر بفاس.

(٢) (ص ١٠٣).

البحث، والأصالة في التفكير، والاهتمام بمشاكل الحياة الواقعية ومحاولة إيجاد الحلول العملية المناسبة لها.

وذلك في نطاق المذهب المالكي الذي اختاره المغاربة لأنفسهم مذهباً، والتزموه وتعصبوا له، وجمدوا عليه، ولم يسمحوا لغيره من المذاهب الفقهية الإسلامية بالوجود معه، وتأثروا به في حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم، مما كان له آثاره المختلفة التي لا مجال للحديث عنها الآن.

ولم يكتف المغاربة بهذه الموسوعات الفقهية الكبرى ذات المجلدات الضخمة العديدة والتي يحاول أصحابها فيها أن يستقصوا أحكام جميع المسائل الفقهية سواء كانت واقعية أو مفروضة. مع إيراد نصوص الأقدمين واختلافات الشارحين في فهمها، والترجيح بين الفهوم المختلفة.

بل إنهم- الى جانب ذلك اهتموا بالكتب التي تلتزم المسائل العملية الكثيرة الوقوع، ومن ذلك- مثلاً- شروح رجزيةابن عاصم الأندلسي «تحفة الحكام» لميارة، وابن سودة، والتسولي، والفاسي، وغيرهم.

ويمتاز شرح ميارة بالتحرير وإيراد نصوص الأقدمين، الأمر الذي يكسب الطالب ألفة لتعابير الأقدمين واصطلاحاتهم، ويسهل عليه بالتالي الاستفادة من أمهات الكتب الفقهية.

ويمتاز شرح ابن سودة بالاختصار والتحرير والاعتماد على آخر ما استقر عليه رأي فقهاء المالكية، مما جعله كتاب دراسة في القرويين والزيتونة بتونس وغيرهما.

ويمتاز شرح التسولي بالتحرير والاهتمام بالنوازل الواقعية والتوسع في الموضوع من غير إفراط.

ومن الموضوعات الفقهية التي برز فيها الكتاب المغربي تبريزاً فائقاً موضوع (النوازل) أو

(الفتاوى) أو (الأجوبة)، فقد كان ملوك المغرب مع أن الكثير منهم كان من كبار الفقهاء- يستفتون الفقهاء فيما يعرض لهم من مشاكل ويلتزمون ما يفتي به الفقهاء.

واستفتاء ملوك الدولة العلوية الفقهاء في مشاكل السياسة الداخلية والخارجية واحتجاجهم بفتاوى الفقهاء في مفاوضاتهم الديبلوماسية مما سارت بحديثه الركبان.

كما كان بجانب القاضي مفت خاص يعين رسمياً بظهير سلطاني، ليستشيره القاضي في النوازل المهمة، كما يستفتيه الناس في شؤونهم الدينية، وكانت له بالقرويين مقصورة خاصة، كما أن بها مقصورة للقاضي، ومقصورة للخطيب وغريفة للموقت.

وكذلك كان المتداعون يستفتون الفقهاء في نوازلهم، ويدلون بهذه الفتاوى للمحكمة، لبيان أحقية ما يدعون. ومع مرور الأيام يجتمع للفقيه عدد من الأجوبة الصادرة عنه، فتارة يجمعها بنفسه في كتاب خاص، وتارة يجمعها غيره من تلامذته أو أولاده.

ومن ذلك مثلاً- كتاب «الدر النثير. في أجوبة أبي الحسن الصغير» و «الأجوبة الكبرى» و «الصغرى» لأبي السعود الفاسي «وأجوبة» المسناوي، وابن سودة، والجاصي، والعلمي وبردلة، وابن هلال، والعباسي، وجنون، وغيرهم.

وفي بعض الأحيان لا يقتصر الجامع على أجوبة فرد واحد، بل يتصدى لجمع أجوبة كثيرة من الفقهاء المالكية على اختلاف بلدانهم وعصورهم.

ومن أشهر هذه المجموعات وأهمها وأفيدها كتاب «المعيار» للونشريشي التلمساني نزيل فاس وعالمها ومدرسها ومفتيها، فقد وقف بفاس في مكتبة العلامة القاضي محمد بن الغرديس على فتاوى فاس والأندلس، وكانت مكتبته محتوية على تصانيف الفنون فاستعان

بها الونشريشي في تأليف «المعيار». كما في فهرسة المنجور، ونقله أحمد بابا في «نيل الابتهاج»[1].

ومثل النوازل الصغرى والنوازل الكبرى المعروفة بالمعيار الجديد. للوزاني مفتي فاس.

هذا الى جانب عدد كبير من مخطوطات الفتاوي والنوازل، من القسمين السابقين التي تزخر بها المكتبات المغربية وما زالت لم تطبع بعد.

ولعل الناحية الطريفة للكتاب المغربي في الميدان الفقهي التي انفرد بها دون بقية الأقطار الإسلامية الأخرى. هذه هي الكتب التي تتضمن ما جرى به العمل في المغرب، مرتباً على أبواب المعاملات الفقهية، مثل «نظم العمل المطلق» وشرحه للسجلماسي الرباطي، و «نظم العمل الفاسي» لأبي زيد الفاسي، وشروحه للناظم، والسجلماسي والعميري، والوزاني وجنون، وغيرهم.

فمنذ سجن فقهاء المسلمين أنفسهم داخل مذهب واحد لا يتعدونه، واجهتهم مشكلة تعدد الأقوال في المذهب الواحد، فحاولوا التغلب عليها باعتماد القول الراجح أو المشهور ولكن هذا الراجح أو المشهور قد يعارضه مرجح آخر، كأن يكون فيه حرج ومشقة على الناس أو يخالف أعرافهم وما اعتادوه، فيلجأ الفقهاء لمخالفة المشهور أو الراجح، ويستندون الى قول آخر ضعيف، فيصبح بجريان العمل به أقوى من الراجح أو المشهور.

وهي حيلة بارعة للتخفيف من وطأة الحلقة الحديدية الخانقة التي وضعوها في أعناقهم عندما أغلقوا باب الاجتهاد، وسجنوا أنفسهم في قفص تقليد مذهب واحد لا يتعدونه، كما أنها من أفيد الوسائل في تطوير الأحكام الاجتهادية.

---

(١) (ص ٨٧).

ومع أن جمهور الفقهاء يأخذون بمبدأ الارتباط بين أحكام المعاملات وأعراف الناس، فإنا لا نعرف عن غير المغاربة أنهم توسعوا في ذلك الى الحد الذي ذكرناه.

وذلك مظهر من مظاهر واقعية التفكير الفقهي عند المغاربة، مما جعلهم يجدون الحلول الإسلامية لكثير من المشاكل المستعصية.

كما فعلوا- مثلاً- في مشكلة السلف بدون فائدة، حيث كانت بقيسارية فاس دراهم موقوفة للسلف. كما عند الشيخ التاردي ابن سودة في «شرح التحفة»[1]، وهي سابقة تاريخية تفتح أفقاً فسيحةً للتفكير من جديد في حل إسلامي صميم، لأعوص مشكلة تواجه النظام الاقتصادي الإسلامي في العصر الحاضر.

على أن الكتاب الفقهي المغربي لم يقتصر على الناحية الواقعية العملية وحدها، بل اهتم كذلك بالناحية النظرية أيضاً.

ومن ذلك الفقه المقارن، مثل كتاب «الآثار والدلائل» في الخلاف بين مالك وأبي حنيفة والشافعي، لأبي محمد الأصيلي نزيل الأندلس (ت ٣٧٢هـ).

ومثل كتاب «تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك» تأليف يوسف بن دقناس الفندلاوي- من ناحية فاس- نزيل دمشق ودفينها، الشهيد في الدفاع عنها عندما هاجمها الصليبيون سنة (٥٤٣هـ)، في قصة رائعة أوردها ياقوت في معجم البلدان[2] عن ابن عساكر.

وقد أشار الفندلاوي في خطبة كتابه الى طول بعض المؤلفات في هذا الموضوع وعدم

(١) (٢/ ٢١١).
(٢) (٦/ ٤٠١)، طبع القاهرة.

إنصاف مؤلفيها، قائلاً: ((وقلما تجد في هذا الشأن منصفاً، أو خصماً بالحق معترفاً فألف كتابه موجزاً مختصراً، أودعه أسراراً عجيبة، وذكر مالنا وما علينا،معراً من اللجج، مؤكداً بواضح الحجج، عل منهج العدل والإنصاف فيما بيننا وبين أصحاب الخلاف: أبي حنيفة والشافعي)) حسب تعبيره، ويقع في (ماية وثلاثين ورقة).

ومن ذلك كتب فقه الحديث، مثل كتاب ((الممهد الكبير الجامع لمعاني السنن والأحكام وما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار، وذكر الرواة البررة الأخيار، وكل ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار))، تأليف أبي علي بن الزهرا عمر بن علي العثماني الورياغلي من بني عمران من أهل القرن التامن للهجرة. يقع في واحد وخمسين مجلداً كباراً، لم يبق منها إلا عشرة أجزاء مفرقة في القرويين والخزانة العامة بالرباط، ومكتبة القصر الملكي ومكتبة ابن يوسف بمراكش، ومكناس والزاوية الحمزاوية.

وذلك مثل آخر من نكبات المكتبة المغربية التي أشرنا اليها في أول هذا الحديث هذا- ولم يكن تفوق الكتاب المغربي في الميدان الفقهي قاصراً على الفقه الإسلامي وحده، بل إنه تعداه الى الفقه اليهودي أيضاً.

فهذا إسحاق بن يعقوب الكوهن المعروف عند فقهاء اليهود بالفاسي، الذي ولد بقلعة سلاس بالقرب من فاس أوائل القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ودرس بالقيروان. ثم رجع الى فاس، فانكب على دراسة التلمود وشروحه ووضع في فقه التلمود كتاباً يقع في عشرين مجلداً استغنى به فقهاء اليهود عن الإلتجاء الى مختلف الدراسات الأخرى المتعلقة بالتلمود وشروحه حتى اعتبره بعضهم بمنزلة تلمود ثان.

وخلف الى جانب ذلك مجموعة من الفتاوى باللغة العربية تشتمل على ثلاثمائة وعشرين فتوى.

وقد ترجمها إلى العبرانية إبراهيم هاليوي أبو قراط. ولا زال بعضها موجوداً بالعربية الى الآن. كما كتب باللغة العربية كتاباً مطولاً يتعلق بثلاث نقط فقهية موجودة في التلمود.

وفي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ذهب الفاسي الى الأندلس حيث أقام في قرطبة ثم في غرناطة، وأخيراً استقر في اليوسانة من أعمال قرطبة حيث أسس هناك معهداً للدراسات العليا التلمودية اشتهر اشتهاراً كبيراً. وأمة الطلاب من كل الجهات، وبقي هناك الى أن توفي أواخر القرن الخامس الهجري أوائل القرن الثاني عشر الميلادي.

ولايزال الفاسي الى يومنا هذا معتبراً من أعظم الفقهاء المعتمدين لدى اليهود، كما يتجلى ذلك بوضوح في كتاب «المقارنات والمقابلات» لمحمد صبري، وهو الذي لفت نظري إليه. وفي كتاب «العلم عند العرب، وأثره في تطور العلم العالمي» للعالم الإيطالي ألدوميلي حديث عنه[1] ثم كتب لي بتفصيل خبره أستاذ يهودي من قدماء طلبتي بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط.

وليس معنى هذه الفذلكة المختزلة المبسترة عن تبريز الكتاب المغربي في الميدان الفقهي القانوني: أن الكتاب المغربي كتاب فقه ليس إلا، فمع ما للميدان الفقهي من أهمية بالغة وقيمة كبيرة في تنظيم حياة الأمة وحفظ حقوق أفرادها، فإننا قد قدمنا أن الكتاب المغربي ساهم في سائر الميادين التي ساهم فيها الكتاب العربي. وقدمنا أسماء طائفة من الكتب المغربية في موضوعات مختلفة تجاوزت في القديم والحديث النطاق المحلي ودخلت في صميم التراث العربي العام. ويكفي أن أشير الى قول صاحب «كشف الظنون» عن «كتاب جامع

---

(١) (ص ٣٠٨).

المبادئ والغايات في علم الميقات)) لأبي علي الحسن المراكشي- وقد قدمنا ذكره-: ((هو أعظم ما صنف في هذا الفن!))[1].

ويوجد الى جانب تلك الكتب كتب برزت في ميادينها تبريزاً فائقاً، ولم تتيسر لها الفرص المناسبة لتنتشر خارج المغرب وتقدر هناك التقدير اللائق بها. ولكن المجال الضيق لهذا الحديث لا يسمح بالتوسع في هذا الموضوع.

ولكننا قصدنا الى تجلية هذه الناحية الفقهية بصفة خاصة. لنلفت النظر الى ما امتازت به العقلية المغربية من التبريز في ميدان التفكير القانوني، وما ينتظر منها من المساهمة المنتجة في نهضة الفقه الإسلامي الحديثة في جامعات مصر وسوريا ولبنان والعراق عندما تتحرر البلاد من احتلال القوانين الأجنبية التي وضعها أعداء البلاد أثناء فترة الإحتلال الأجنبي البغيض، في نطاق المخطط الاستعماري الإجرامي لقطع صلة الأمة بدينها القويم وماضيها المجيد، وحضارتها وثقافتها وروابطها الفكرية المتينة مع بقية الأقطار العربية ومحو شخصيتها وتمتين الأغلال التي تمسك بخناقها في حضيض الاستعمار الروحي، وعار الاحتلال الفكري، وخزي التبعية الثقافية.

فمع ما في بقاء هذه القوانين الأجنبية من إهانة للأمة، ودوس، لكرامتها الوطنية فإن أمة لها هذا التراث الفقهي الضخم والماضي القانوني المجيد، لا يجوز أن تقطع صلتها بهذا الماضي المشرق الوضاء وتصبح عالة على أعدائها في فقه يرجع أصله الى الوثنية الرومانية وقد طبعته المسيحية والإلحاد اللذان سيطرا على فرنسا في حقبتين مختلفتين بطابعهما الخاص، هذا إلاّ أنه لا يتصل بحياة الأمة وعقليتها وطبيعتها وحضارتها.

---

(١) (١/ ٥٧٢)، طبع استنبول (١٣٦٠هـ- ١٩٤١م).

وقد سبق لرائد الفكر الإسلامي الحديث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله أن ه الى الصلة التي يجب أن تكون بين ما يشرع للأمة من قوانين وبين أحوال الأمة وطبائعها عاداتها وأخلاقها فرب قانون يلائم مصالح قوم لا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك يضر بهؤلاء.

ونحن- وإن كنا من غلاة المتطرفين في الدعوة الى الاجتهاد والاستقلال في التفكير مسايرة التطور والتجديد، والاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة في ميادين التنظيم التيسير، ومحاربة الجمود والتقليد والتعصب المذهبي، ونعتبر ذلك شرطاً أساسياً للانبعاث لإسلامي المنشود، والقضاء على الرجعية والإمّية والتخلف الفكري والكسل العقلي- إننا نريد تجديداً إسلامياً في نطاق الإسلام وفي دائرته، لا تقليداً كفرياً استعمارياً أجنبياً، معاذ الله أن ننكر الجمود على ما قاله الأئمة السابقون، ونقبل الجمود على ما شرعه لأعداء الكافرون المستعمرون!!

على أنه مما لا مجال للجدال فيه أن فقهنا في حاجة الى تقنين، وإلى كتب جديدة يضعها فقهاء متخصصون في دراسة الشريعة الإسلامية، متبحرون في معرفة مصادرها وأصولها ومذاهبها، متعمقون في أسرارها وحكمها وفلسفتها يعرضونه بلهجة العصر وأسلوبه وعقليته وروحه ويواجهون حاجياته المستجدة، بعد أن لم تبق الكتب القديمة صالحة لسد هذا الفراغ.

ولنعد الى موضوع الكتاب المغربي فنقول: إن من الحق أن هناك كتباً مغربية لا ينطبق عليها ما قلناه عن الكتاب الفقهي، من أن الغالب عليه التحرير، والتحري في النقل والتعمق في البحث والأصالة في التفكير ومن ذلك مثلاً كتب المناقب والفضائل والمرائي والغيبيات وما أشبهها، فإن الغالب على الكتاب المغربي فيها التساهل، وعدم الاهتمام بالتحري والنقد والتمحيص ولو كان مؤلفه من كبار الأعلام.

على أن من الحق أن نقول أن ذلك ليس من خواص الكتاب المغربي وحده، بل هي ظاهرة عامة في الكتاب العربي في هذه الموضوعات في الأغلب الأعم.

وقد كان من آثار حفظ الله للمغرب من الاحتلال التركي أن بقيت حالة اللغة العربية في المغرب سليمة، فلم تصب بما أصيبت به في بقية البلاد العربية الأخرى.

قال الرحالة التونسي الشيخ محمد بيرم في «صفوة الاعتبار»[1]: «ولعمري أن صناعة الإنشاء في الدولة باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش. وأما غيرها من الدول فقد تذبذبوا، وكادت كتابتهم أن تخرج «الأسلوب العربي، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية، بخلاف كتاب المغرب، وهذا ديدنهم من قديم».

الزخرفة في الكتاب المغربي

وكما اهتم المغاربة بموضوع الكتاب، فقد اهتموا كذلك بمظهر الكتاب، فكان لهم فن جميل خاص فيما يتعلق بنسخ الكتب وزخرفتها، وتزيينها بالصور أحياناً، وبالأشكال الهندسية والذهب والألوان سواء في صلب الكتاب، وهوامشه، وأطرافه أو في تسفيره.

ففي مكتبة القصر الملكي بالرباط قطعة من كتاب في البيطرة لمؤلف مجهول، لا أول لها ولا آخر، وهي بخط مغربي جميل ملون. وفيها أربع صور:

١- تمثل فرساً بيضاء، ملجمة، وسائسها فاتح فمها يقلب أسنانها.

٢- تمثل فرساً قهوية اللون بيضاء الأطراف، مربوطة من حافرها الأول الأيمن.

٣- تمثل حصاناً بها برص.

---

(١) (١/ ٢١).

٤ – تمثل حصاناً قد قفز على حجرة ورأسها في يد سائسها، وهي مشكلة الأربع، وقد قبلت الفحل ولم تنفر منه أصلاً، والعبارات في وصف هذه الصورة الرابعة للمؤلف.

قال المؤلف: ويكون وراءها في الورقة التي تلي هذه الورقة، وهي نتاجها ولكن هذه الورقة التي أحال عليها غير موجودة في هذه القطعة، وهي تحت رقم (٦١٢٦م).

ومن هذا الكتاب أيضاً قطعة أخرى فيها صورتان ملونتان جميلتان. تمثل إحداهما فرساً دهماء أدخل بيطار في رحمها متانة وهو ينفخ فيها. ويمسك بلجامها رجل جالس على مصطبة من جلد.

وتمثل الثانية حصاناً أبيض يسقيه بيطار دواء في قرن بقري طويل. وقد ارتفع البيطار فوق دكة، ليصل الى فم الحصان والبيطار يرتدي قميصاً مغربياً ودراعة مغربية فوقها كساء مخطط، وفوق رأسه عمامة مغربية، وهي تحت رقم (١٠١٦).

وأخبرني كتبي أنه كان يملك عدة كراريس من مخطوط مغربي في البيطرة يرجع تاريخ نسخه الى حوالي أربعة قرون. وفيه صور كثيرة للخيول في أوضاع وأشكال مختلفة.

كما أخبرني الأستاذ المنوني: أنه يملك نسخة من كليلة ودمنة في حجم كبير بخط مغربي رديء مجدول ملون، كتبت للباشا سعيد بن العياشي ابن عبد السلام، وبها ثمان صور غير متقنة لحيوانات.

وكان المستعرب الإيطالي ليفي دلافيدا قد أوقفني في منزله بروما صيف (١٩٥٩م) على قطعة من قصة مصورة بعنوان «بياض ورياض»قائلاً: إنها المصور المغربي– الوحيد بمكتبة الفاتيكان، وهي قصة شاب اسمه بياض من أسرة كريمة من دمشق ساح في البلاد وقابل فتاة اسمها رياض على شاطئ نهر يسمى (طرطر) فهام بها وأصابته محن وحرمان، ويتضمن النص الإشارة الى ثلاث عشرة صورة، حيث يذكر في كل موضع عنوان الصورة التي تمثل

منظر الحادثة التي يوردها، ولكن لا يوجد بالنص الآن إلا تسع صور وتعتبر الأربع الأخرى ضائعة.

وقد نشرت الجمعية الإسبانية الأمريكية هذه القصة مصورة عن الأصل الموجود بالفاتيكان بخطها المغربي الجميل. في مطبعة جريدة الهدى اليومية الأمريكية في نيويورك مع ترجمة إسبانية بقلم الدكتور أ. ر. نيكل سنة (١٩٤١).

ثم إنني وقفت في كتاب «الفن والفنانون المسلمون» لأنطونيو غارسيا خاين على ثلاث صور من القصة المذكورة قائلاً: إنها قصة إسبانية[١].

وتحدث الدكتور جمال محرز في كتيبه «التصوير الإسلامي ومدارسه» عن هذه القصة على أنها أندلسية، وقال إنها من القرن الثامن الهجري للميلاد[٢].

وفي كتاب «العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع» الذي ألفه بالإسبانية إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي وترجمه عن الإسبانية ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده أحمد بن قاسم بن أحمد بن قاسم الحجري، حوالي ثمانين صورة تتضمن جميع أشكال المدافع وآلات الحروب القديمة على اختلاف أنواعها.

ويوجد بخط مؤلفه في الخزانة العامة بالرباط[٣] وفي تركيا، وفي دار الكتب المصرية، ومنه نسخة في مكتبة القصر الملكي بالرباط[٤]، وكانت توجد منه نسخة بالقرويين ولكنها ضاعت.

---

(١) (ص ٤٨- ٤٩).
(٢) (ص ٤٣- ٤٤).
(٣) رقم (ج ٨٥).
(٤) رقم (٢٦٤٦م).

وهذا الكتاب هو أول كتاب ترجم للعربية في الموضوع، ومنه تعلم ملوك تونس أعمال المدافع والبارود وآلات الحرب.

وذكر أحمد تيمور في كتاب «التصوير عند العرب» أن عنده «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي وبه مصورات كثيرة[1].

ونبذة في هول يوم القيامة منقولة من «ذخيرة المحتاج» مغربية الخط بها صورة خيالية لجهنم وأوديتها! وهي بالحمرة والسواد[2].

قال: «ولا يذهب عن الذهن تصوير الحرمين في دلائل الخيرات. وما امتازت به بعض نسخها من الاتقان في الزخرفة والتذهيب وقد اطلعنا على نسخ منها مشرقية ومغربية غريبة الصناعة، بالغة النهاية في جودة التصوير والنقش»[3].

وفي الخزانة العامة أزيد من خمس نسخ من جزء من «ذخيرة المحتاج» عن المعراج الحسي، وفيه صورة سدرة المنتهى، وقلم القدرة النوراني، واللوح المحفوظ الرباني، وصورة الجنان[4].

هذا ما يتعلق بالتصوير في الكتاب المغربي.

وطبيعي في مجتمع يهتم بالعلم والدرس وليس به مطابع ولا آلات للكتابة، أن تزدهر النساخة بين الطلبة والعلماء والمثقفين.

---

(١) (ص ٤٥).

(٢) (ص ٤٥).

(٣) (ص ٥٩).

(٤) الأرقام (ك ٢٧٧٦، ك ٢٧٦٨، ك ٢٧٦٤، ج ٥١٨، ج ٥١٠).

وقد حدثنا علي بن ميمون الغماري دفين لبنان في ((رسالة الأخوان من أهل الفقه وحملة القرآن)) التي كتبها بصالحية دمشق سنة ((٩١٥هـ ١٥١٩م)). ووجهها الى إخوانه بفاس: ((إنه عندما كان بفاس- التي قال عنها أنه لما أتى إليها من غمارة حوالي (٨٦٧هـ- ١٤٦٣م) وجدها روضة من رياض الجنة. -كان مولعاً بالنسخ. فنسخ في علم الفقه وفي علم الفرائض والحساب كتباً أمهات وشروحاً، وفي علم الشعر والقوافي، أُماً وشرحاً، وفي علم التوحيد كذلك أُماً وشرحاً، وفي علم الهيئة، وفي علم الوقت والتعديل، والطلسمات، وعلم الأوفاق وسر الحرف، والبسط والكسر، وشيئا من كتب البوني، والمساحات، وتجارب الفرس، وغير ذلك[1]، وقد اهتمت كتب التربية والتعليم المغربية- أو كتب آداب طالب العلم كما كانوا يسمونها بآداب النساخة وقواعدها مثل ((قانون)) اليوسي. ومنظومة ((سراج طالب العلوم)) للعربي المستاري وشرحها، ((طراز الذهب المرقوم)) لوالدي أبي العباس أحمد بن جعفر الكتاني رحمه الله. وشرحها ((الابتهاج)) لشيخنا أبي العباس البلغيثي رحمه الله.

وفيها يوصي الناسخ: بتجويد المداد وتحسين الحروف. وتقويم السطور، وتوفير البياض بين السطرين، والتفرقة بين خط المتن وخط الشرح، وأن يكتب بالحمرة تراجم الكتاب وما أشبهها وتغليظ الحروف إن اتحد اللون، وباتخاذ سكين لبري القلم وبشر ما يقع في الكتابةمن زيادة حرف أو تحريف، ويحذره من المبالغة في ترقيق القلم، ومن المحو والإكثار من الضرب أي التشطيب ويأمره أن يصلح ما يجده في الأصل المنتسخ منه من لحن ظاهر إذا كان عند الناسخ من العلم ما يؤهله لذلك، وما كان غير واضح فيكتب عليه (كذا) أو يترك محله بياضاً حتى يعثر على أصل صحيح يعتمد عليه.

---

(١) راجع في الخزانة العامة بالرباط الأرقام: (١٧٨٠، ق ٩٥ ك ١٩٥٢).

وأخبرني الأستاذ العابد الفاسي: إنه وقف على رسالة من عصر السعديين في موضوع الأصباغ والألوان وأنواع المداد والأقلام التي يكتب بها كل موضوع على حدة.

والى جانب معامل الورق الكثيرة التي قال صاحب (القرطاس): إنه كان منها بفاس أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجري أواخر الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلادي أربعمائة حجر[1]، فقد كانت صناعة نسخ الكتب صناعة رائجة يتعيش منها أقوام لهم خطوط جيدة ويحسنون تزويق الكتب وتذهيبها وزخرفتها أو يكلون التزويق الى من يحسنه، وكان بالقصر الملكي موظفون خاصون بالنسخ والتزويق.

وكان من كبار العلماء من لهم خطوط جميلة ويحترفون صناعة نسخ الكتب يتعيشون منها، وكان الناس يتغالون في شراء ما ينسخه هؤلاء العلماء من كتب، لأنهم عرفوا بتحريهم تصحيح ما ينسخون.

بل كان الملوك والأمراء والرؤساء والأغنياء يعتنون بنسخ المصاحف وكتب الحديث والسيرة النبوية، ويبالغون في زخرفتها تقرباً الى الله، وتخليداً لاسمهم، ومنهم من كان يوقفها على مكتبات المساجد. وخصوصاً الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى كما هو معلوم.

وفي مكتبة ابن يوسف بمراكش شذرات من مصحف على رق الغزال تحت رقم (٤٣٣) كتبها سنة (٦٠٤) عمر المرتضى آخر ملوك الموحدين في عشرة أجزاء، وفي آخر الجزء الخامس صفحتان مكتوبتان بالذهب محاطتان بإطار، وبعدها لوحة مذهبة ملونة، وتوجد منه قطع بمتحف الأوداية بالرباط.

---

(١) (ص ٤٩) طبع حجر بفاس.

وقد تحدث المؤرخون المغاربة والمشارقة من قدماء ومحدثين، كابن خلدون والخطيب ابن مرزوق، والمقريزي وابن نباتة والناصري ومخلص والمنوني عن مصاحف أبي الحسن المريني الثلاثة التي كتبها بيده في رق الغزال، بمداد من فتيت المسك وعطر الورد، وربما أضيف إليها في بعض الأحيان الزعفران الشعري، وكل واحد منها في (ثلاثين) جزءاً. وجمع الوراقين، لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها، وصنع لها أوعية من الأبنوس والعاج والصندل فائقة الصنعة مغشات بصفائح الذهب مرصعة بالجوهر والياقوت، واتخذ لها أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب والديباج وأغشية الكتان، وأوقف نسخة منها بالحرم المكي، ونسخة ثانية على المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وثالثة على المسجد الأقصى بالقدس الشريف [1].

وقد وقفت على ما بقي من أجزاء النسخة الثالثة بالمتحف الإسلامي بالقدس الشريف عندما زرته أول مرة أواخر سنة (١٩٥٩م).

وفي الأسكوريال مصحف كتب برسم خزانة المنصور السعدي، وقد كتب بمحلول العنبر وماء الورد حسبما ذكر في آخر سنة (١٠٠٨هـ ١٥٩٩م) (رقم ١٣٤٠)، وهو معروض بالقاعة الكبرى [2].

وقد اهتم المغاربة اهتماماً فائقاً بزخرفة وتذهيب وتزويق المصاحف الكريمة، وكتب الحديث النبوي الشريف وخصوصاً الصحيحين، وكتب السيرة النبوية ككتاب «الشفا» لعياض، و«شمائل» الترمذي، و «الاكتفاء» للكلاعي. وكتب الصلاة على النبي ﷺ. ككتاب «دلائل الخيرات» للجزولي و «ذخيرة المحتاج» للمعطي الشرقي البجعدي، و

---

(١) راجع مثلاً الناصري: الاستقصاج (ص ١٢٧- ١٣١).

(٢) راجع: ليفي بروفانصال: Les manuscrits Arabes de I'Escurial: T. 3, P. 1, 2, 34, 36.

«الأمداح النبوية»، كبردة البوصيري وهمزيته، ولامية كعب بن زهير، ووتريات البغدادي وما أشبه ذلك.

بل إن كتب القصر الملكي تجاوزت ذلك الى زخرفة كتب الطب والصيدلة والهندسة والأدب والتاريخ والكيمياء والرحلات وغيرها.

وهكذا تملك المكتبة المغربية ثروة ضخمة جداً من الكتب المزخرفة والمذهبة والملونة الرائعة. تبلغ آلاف المجلدات، وتعتبر من أعظم ذخائر الحضارة الإنسانية على العموم.

وقد بقيت صناعة النساخة مزدهرة بالمغرب، وعلى الخصوص بفاس ومكناس الى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وكذلك ازدهرت بالمغرب صناعة زخرفة الجلد ونقشه وتذهيبه وحفره ازدهاراً كبيراً، وكان بفاس- وما يزال- سفارون ماهرون، حتى ألف أحمد بن محمد السفياني رسالة في تسفير الكتب وحل الذهب، كما كان في القصر الملكي موظفون خاصون بذلك.

وقد اكتسب جلد الكتاب عند المغاربة الاحترام والتعظيم تبعاً للكتاب، فجاء في المثل الدارج: «على وجه الكتاب تباس الجلدة» أي تقبل.

ناهيك أن بعض المؤلفات الأوروبية- كالفرنسية مثلاً اشتقت من كلمة (المغرب) (ماروك- Maroc) وصف (مغربي) مجرداً عن ذكر الموصوف (Maroquin) مراداً به الجلد المستعمل للتجليد الجميل ثم اشتقت من الكلمة كلمة ماروكينوري (Maroquinerie) للدلالة على مختلف الصناعات الجلدية وعلى تجارة الجلد، والمكان الذي يصنع فيه، وصاغت منها وصف (ماروكيني) (Maroquinier) لصانع الجلد وبائعه.

وتلك إحدى مظاهر تأثير الكتاب خارج المغرب

ومن أبرز ذلك أيضاً هذه الأرقام العربية التي علمناها لأهل أوربا، فاستبدلوها بأرقامهم الرومانية واحتفظوا لها فيما بلينهم باسم الأرقام العربية.

وقد أشار القلقشندي في ((صبح الأعشى)) الى أن كتابة الأمم السودانية مثل مالي والتكرور وغيرهم هي بالخط العربي على طريقة المغاربة[1].

وذكر عبد الفتاح عبادة في كتاب ((انتشار الخط العربي)): أنه تولد من الخط الفاسي خط جديد انتشر في جميع أنحاء السودان، وذلك لانتشار الإسلام في تلك الأصقاع على يد أهل المغرب[2].

وقال الدكتور حسن أحمد يوسف السوداني في الكلمة التي ألقاها باسم الجمهورية السودانية في المؤتمر الإقليمي الأول بفاس للجان الوطنية العربية لليونيسكو سنة (١٣٧٧هـ- ١٩٥٨م): ((فأثر المغرب في السودان واضح في كل مكان: علمه القديم يدرس في المساجد وأثره واضح في الحياة الدينية في كل نواحيها))[3]، وذكر صديقنا المرحوم الدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد في أطروحته الجامعية ((التربية في السودان من أول القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر)): إن من كتب الدراسة في السودان (النيلي): الآجرومية، ومتن الخراز، كما ذكر دلائل الخيرات، ووظيفة الشاذلي وأحزابه والطرق الناصرية، والتيجانية والأحمدية أو الإدريسية المنسوبة لأحمد بن إدريس الميسوري نزيل عسير[4].

---

(١) (٥/ ٢٩٨).

(٢) (ص ٧٦- ٧٩).

(٣) المؤتمر الاقليمي: (ص ٧١)، طبع الرباط.

(٤) (١/ ١٥٤- ١٥٦، ٢٤٢- ٢٤٥).

كما تحدث الأستاذ عبد المجيد عابدين المدرس بكلية الخرطوم الجامعية، في كتابه «الثقافة العربية بالسودان منذ نشأتها الى العصر الحديث»: من أن المغرب كان منبعاً من منابع الثقافة الإسلامية في السودان، بواسطة القبائل العربية المغربية (ص.ع) وبواسطة العلماء المغاربة (ص ٥٥-٥٦) والطرق الصوفية، كالشاذلية (ص ٦٤) وطريقة السيد أحمد بن إدريس الفاسي بواسطة تلميذه محمد الأمير غني الذي أرسله الى السودان فنجحت دعوته نجاحاً تاماً، وبواسطة غيره من تلامذته الذين أخذوا عنه بمكة (ص ٩٦-٩٧) والطريقة التيجانية والرحمانية التي هي فرع من الدرقاوية، والطريقة البدوية نسبة لسيدي أحمد البدوي الفاسي دفين طنطا (ص ٩٨-٩٩).

وذكر صديقنا الأستاذ الصدّيق ابن العربي: «أن المستعرب الفرنسي جان بيرك أخبره أنه لاحظ في مكتبتي المهدي والمرغيني بالخرطوم أن أغلب كتبها بالخط المغربي.

ومن رجع الى مؤلفات أهل تمبتكو وسوكوتو مثلاً، مثل مؤلفات أحمد بابا السوداني، والشيخ المختار الكنتي، وولده محمد وحفيده أحمد البكاي، وسلطان سوكوتو محمد بيلو ابن السلطان عثمان انفوديو الفلاني ونحوها رأى الى أي مدى بلغ تأثير الكتاب المغربي في هذه الأقطار».

وفي رسالة «أفريقيا الغربية في ظل الإسلام». للأستاذ السوري نعيم قداح الذي عمل مدرساً للغة العربية في جمهورية غينيا سنة (١٩٦٠م)، إشارات كثيرة الى أثر الثقافة العربية المغربية في أفريقيا الغربية.

مثل انتقال حب المغاربة للنحو والصرف الى الأفريقيين، لأن كثيراً من كتب النحو قد

حملها الأساتذة العرب الى أفريقيا المغربية فيما أدخلوه الى تلك الأصقاع[1].

وإن الدراسات الإسلامية الإبتدائية هناك تغذي المراحل العليا في تمبوكتو وفاس والقاهرة فيما إذا أراد الطالب متابعة تحصيله[2].

وإن التعليم في أول أمره كان محصوراً بالأساتذة العرب القادمين من شمال أفريقيا، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الأفريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدارس العربية في المغرب ومصر[3].

وأن فرنسا وبريطانيا رائدتي الاستعمار في أفريقيا الغربية لم تستطيعا تحويل انظار الأفريقيين عن فاس وتونس والقاهرة ومكة[4].

وذكر الشيخ محمد البشير النيفير التونسي: «أن تونس، بعد الحملة الإسبانية عليها، سنة (٩٨١هـ-١٥٧٣م) وحريق مكتبتها الإسلامية أعادت تجديد ثقافتها بالاستمداد من مصر ومن المغرب الأقصى.

وذكر صديقنا الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور خطاباً[5] أشاد فيه بالدور العظيم الذي قام به علماء المغرب في تنوير الرأي العام التونسي ونشر المعرفة والثقافة العربيةوالعلوم الإسلامية بين التونسيين. وقال:

«إن كل شيء في هذه الجامعة يذكر بالمغرب فابن عاشر، وميارة، وابن آجروم والشيخ

---

(١) (ص ١٤٥).

(٢) (ص ١٤٥).

(٣) (ص ١٤٣و ١٤٢ ت).

(٤) (ص ١٥٢).

(٥) الخطاب ألقي في جامع الزيتونة يوم الأربعاء (٤ شعبان ١٣٨٤هـ).

المكودي وابن بري والخراز يذكرون التونسيين بالمغرب وأبو الحسن الصغير، والتسولي، والشيخ التاودي ابن سودة، وبناني والرهوني يذكرون بالمستوى العالي العلمي بالمغرب.

وإن خزائن هذا المسجد ومكتباته العلمية المشتملة على الآلاف من الذخائر العلمية، لتذكر مطالعها باجتهاد علماء المغرب في نشر الفكر والثقافة الإسلامية وتوسيع نطاق الثقافة العربية بهذه البلاد».

وقال الشيخ ابن عاشور: «إننا مدينون في هذا الميدان للمغرب بكل شيء. فنحن نقرأ القرآن بوقف الإمام الهبطي الفاسي، ونصلي على رسول الله ﷺ بتلاوة دلائل الخيرات للجزولي، ونتفهم فضائل النبي ﷺ وما خصه الله به من مكارم الأخلاق بواسطة كتاب «الشفا» للقاضي عياض، كما أن رواية علماء تونس الحديث كلها تتصل في القديم والحديث بعلماء مغاربة من عهد دراس بن إسماعيل وأبي عمران الفاسيين.

ثم توضع بين يدي ملك المغرب واحدٌ من عشرات الكتب الدينية والأدبية التي يجد علماء تونس في مطالعتها متعة، وفي مراجعتها خير أداة لفهم العلم وتحصيله، وهو مجموع يضم أربعة من مؤلفات السلطان محمد بن عبدالله الذي كان صاحب مذهب كبير ومدرسة حديثة ممتازة[1].

وأما أثر الكتاب المغربي في مصر، فنكتفي منه بذكر مثل واحد يغني عما عداه، وهو ما حكاه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما كتبه من ترجمته الشخصية، عن نفوره من العلم في بدء طلبه له بتلقي شروح الكفراوي على الآجرومية وقضائه سنة ونصفاً لا يفهم شيئاً، لرداءة طريقة التعليم. وفراره إلى الشيخ درويش أحد أخوال أبيه الذي جاءه

(١) من المؤسف أن كتاب «٧ أيام في تونس» أهمل تسجيل خطاب الشيخ ابن عاشور.

بكتاب، وسأله: أن يقرأ له شيئاً منه كضعف بصره، قال: «فدفعت طلبه بشدة، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها، ونفرت منه أشد النفور، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد»، لكن الشيخ تبسم، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ منه بضعة أسطر. فاندفع الشيخ درويش يفسر له معاني ما قرأ بعبارة واضحة، تغالب أعراضه فتغلبه وتسبق إلى نفسه.

وفعل في اليوم الثاني كما فعل في اليوم الأول، أما اليوم الثالث فبقي يقرأ له وهو يشرح له معاني ما يقرأ نحو ثلاث ساعات.

قال: «ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم».

وكان الكتاب الذي جاء به الشيخ درويش ليقرأه له بخط مغربي دقيق[1].

على أن التعرف بتدقيق على أثر الكتاب المغربي خارج المغرب، يتوقف على إرسال بعثات ثقافية لمختلف البلاد، لتقصي آثار الصلات الثقافية بينها وبين المغرب في مختلف العصور.

هذه نظرة خاطفة عن الكتاب المغربي وقيمته، ينقصها كثير من التفصيل وضرب الأمثلة، وإيراد الحجج والشواهد مما لا يتسع له الوقت الضيق المحدد لهذا الحديث بينما الموضوع شاسع الأطراف، فسيح الجوانب يتسع الكلام فيه للمجلدات الضخمة العديدة.

وختاماً نتمنى من صميم أفئدتنا أن تتحرر بلادنا في القريب العاجل، من وطأة الاستعمار الفكري وعار الاحتلال اللغوي. وخزي التبعية الثقافية، حتى يستطيع الكتاب

---

(١) محمد رشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام»: (١/ ٢٠- ٤٢).

المغربي العودة من جديد لمواصلة رسالته الدينية والعلمية والثقافية والحضارية في الداخل والخارج، كجزء لا يتجزأ من الكتاب العربي، له طابعه الخاص وشخصيته المتميزة، فتتحقق من جديد وحدة الكتاب العربي، وبالتالي وحدة الثقافة العربية، كما تحققت من قبل في القرون الخالية، والأجيال الماضية وما ذلك على همة ووطنية الأمة المغربية العربية المسلمة المكافحة ببعيد بحول الله.

